Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. رفيق حبيب

تفكيك الديموقراطية

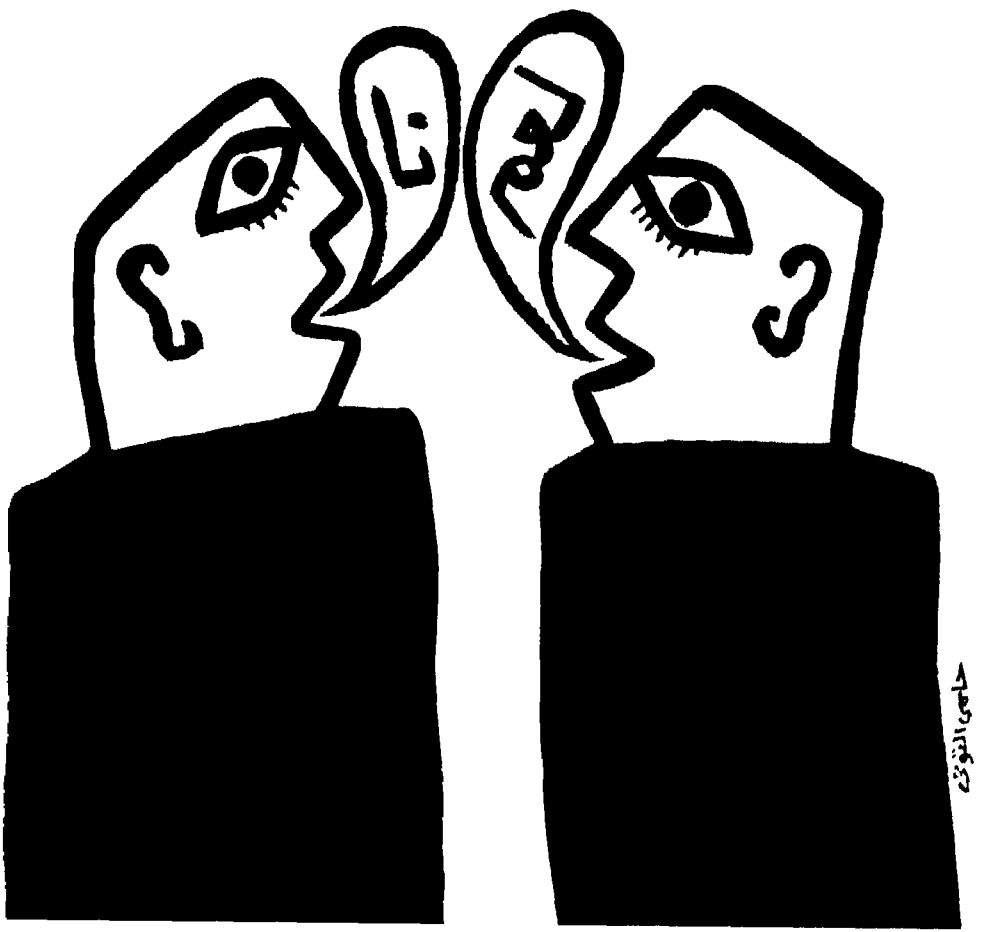

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفكيك الديمقراطية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٨١٧٢١٣-٣١٥٨٥٩
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. رفيق حبيب

تفكيك الديموقراطية

دار الشروق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقـــدمـــــة

فى الصفحات التالية رؤية لمجمل المعارك السياسية والثقافية ، التى شغلت من عمر أمتنا سنوات وسنوات ، وهى رؤية للحادث فى نهاية القرن العشرين ، ومحاولة ضمنيـة للخروج من تلك المعـارك ، قبل مقدم القـرن القادم . أو ربما هى محاولة تفجير المعارك ، حتى نخرج من دائرتها الجهنمية . ليست ـ بالطبع ـ القول الفصل ، ولكنها محاولـة للبحث عن نهاية لدوامة المعـارك التى لطخت ثوب الأمة .

ولمعالجة المعـارك ، ومواجهتهـا أساليـب عدة . منهـا التحليل ، ومحاولـة الفهـم ، والتفسير . والمحاولـة التـى نحـن بصددهـا فيهـا مـن كل ذلـك ، بالإضافة إلى كـونها تجريبا للصراحة ، وخروجا عن أى قنـاع ، فهى بعيدة عن المناورة ، وبعيدة عن أى محاولة للتجميـل . فهى عرض لا تنقصه الصراحة ، وصراحة لاتنقصها الجرأة ، أو هكذا نظن .

والهدف مـن ذلك ، أن نخـرج معـارك الساحـة عـن أى التباس سـائد ، ونفتح الجرح فى أعماقه . وفى ذلك نداء لعقلاء الأمـة ، لرؤية واقعنا كما هو بلا رتوش ، حتى نتدبر أمرنا ، قبل أن يفعل غيرنا ذلك .

ولاشـك أن كـل معـالجة متحيزة ، لأنها رؤيـة تعبر عـن صـاحبهـا . وفى المعارك ، وتحت وابل الرصاص ، ووسط جو مشحون بالعنف ، وملبد بسحب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحاكمات العسكرية والقوانين سيئة السمعة ، فى جو كهذا نقول إن التحيز فريضة لايمكن الفكاك منها . فكل رؤية هى انتصار لفكرة ، وحرب على فكرة أخرى . وعندما تصاب أمة بالأزمات ، كأمتنا ، يصبح التحيز فى حد ذاته كفاحاً ونضالاً ، لأنه إعلان مبادىء ، ورسالة تحمل سلاح الإيمان ، وتواجه بسلاح الترهيب .

والصفحات التالية مشاهد للمعارك السياسية الراهنة التى تشغل عقل ووجدان أمة العرب والمسلمين ، وهى مشاهد من منظور متحيز ، لمقولة أننا أمة العرب والمسلمين ننتمى إلى حضارة متميزة ، ومختلفة عن غيرها . ولذلك ، فلنا قيمنا التى لا يجوز أن نتنازل عنها . ومن خلال هذا التحيز الواضح لقيم الحضارة العربية الإسلامية ، نعرض لمشاهد واقعنا المعاصر ، ومعاركه ، ورموزه ، وشعاراته .

لذلك نخضع مقولات الحياة السياسية لقيمنا ، فنرى الديمقراطية من خلال تحيزنا القيمى ، ونكشف أبعادها ودلالاتها وأساليبها ، وكذلك بالنسبة للحداثة والتقدم والليبرالية وغيرها من شعارات هذا الزمن . ولا نظن أن فى ذلك تحيزا مكروها ، بل هو التحيز الوحيد الجائز ، تحيز الأمة لقيمها ضد كل ما يفرض عليها .

د. رفيق حبيب

فبراير ١٩٩٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استعمار صناعة محلية

عندما نعود إلى نهايات القرن التاسع عشر ، تظهر فى أفق التاريخ قضية الاحتلال العسكرى ، بكل أبعادها . تلك القضية التى فجرت مشاعر الوطنية الصادقة ، لتدفع أبناء هذا الوطن نحو معركة الاستقلال . وتبرز أسماء مثل أحمد عرابى ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، وكلهم رموز تلك المرحلة ، التى تجمع فيها أبناء الشعب معاً ، كتلة واحدة فى مواجهة الاستعمار . ومالبث القرن العشرون على الوصول إلى منتصفه ، حيث قامت ثورة يوليو ، على يد جمال عبد الناصر وصحبه ، لتعيد لمصر استقلالها . وبعد أقل من نصف قرن من ثورة يوليو ، علينا أن نسأل أنفسنا بصدق ، هل تحقق الاستقلال ؟!

إن كفاح الشعب عبر السنوات الطويلة ، ليس دون فائدة . فما أنجز على أرض الواقع ، هو جزء أصيل من تاريخ النضال الوطنى . مع هذا يظل السؤال حائراً ، فالاستقلال كما فهمناه من التاريخ ، كان جلاء قوات الاحتلال العسكرى . ولكن الاستقلال كما نفهمه الآن ، مع نهايات القرن العشرين ، ليس هو جلاء القوات ، بل جلاء الأفكار والنفوذ والهيمنة . لذلك عدنا بعد هذه القصة الطويلة من الكفاح ، نطالب مرة أخرى بالاستقلال وهذه المرة نواجه مشكلة معقدة ، فالاحتلال موجود ، وغير منظور. وحتى ندركه لن ينفعنا البصر ، بل نحتاج للبصيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلك بالفعل إشكالية اللحظة الراهنة ، فعندما نجد أمامنا قوة محتلة غاشمة ، ترفع السلاح فى وجه أبناء الوطن ، عندئذ يسهل أن نحشد قوانا تجاهها ، ولكن عندما تختفى رموز الاحتلال ، ويصبح احتلالا ضمنيا غير صريح ، تتعقد الأمور وتتوه منا العلامات والرموز ، ويصعب أن نعرف العدو من الصديق . ولكن هل بالفعل لم يتحقق الاستقلال ؟!

إن العودة للوراء قليلاً ، تنفع فى تتبع مسيرة الأحداث . فقوات الاحتلال الغربى ، جاءت فى أشكال رمزية ، قبل وبعد ، قدومها فى شكل عسكرى سافر . إن وقائع مسيرة الأمة تكشف عن طوفان من الأفكار الغازية ، التى تدفقت على البلاد خلال القرن التاسع عشر ، وفى نهاية تدفق الأفكار ، جاءت قوات الاحتلال . وقبل أن يضع الجندى قدميه ليستعمر البلاد كان التاجر قد سبقه ، ووضع قدميه وحقق الهيمنة على اقتصاد البلاد . فالاحتلال بدأ مستتراً بالأفكار ، ثم بالأموال ، وتحول سافراً بالقوات العسكرية . وعندما احتلت الأفكار مساحة من العقل ، كونت لها أتباعا من أبناء الوطن أنفسهم . وعندما دخلت الأموال لتحتل مساحة أخرى ، تجمع حولها أصحاب مصالح من الوطنيين أنفسهم . وكذلك فإن القوات العسكرية ، وهى تمارس عملها ، جذبت حولها بعض العملاء .

والأفكار احتلت العقول ، والأموال استعمرت المصالح ، وعندما رحل الاستعمار العسكرى ، واجه قادة يوليو استعمار المصالح الذى بقى معركة ذات دلالة فى وجدانهم ووجدان الشعب . وبقى السد العالى ، رمزاً لمقاومة استعمار المصالح . ولكن الطابور الخامس للاستعمار والذى سبق قدومه ، استمر بعد خروجه ، وظل مؤثراً طيلة معارك استقلال المصالح ، وكان هو استعمار العقول وأتباعه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما كنا تحت الاحتلال ، كنا نواجه عملاءه ، وبعد خروج الاحتلال اختفى العملاء ، وبقى الوكلاء . فالأفكار التى استعمرت عقول القلة ، ظلت تجد أرضية لها من بين أبناء الوطن ، حتى كونت جماعة وكلاء الغرب . واستمر تأثير الاستعمار الثقافى ، بأشكاله المتعددة ، طيلة مراحل الكفاح ضد الاستعمار العسكرى ، وبعد جلائه ، وحتى الآن . وظل استعمار الأفكار ، هو الأرضية الثابتة ، لنزع كل احتمالات استقلال الأمة . فهو المرحلة التى مهدت لغيره من أشكال الاستعمار ، وهو كذلك العنصر الذى جعل الاستقلال الحقيقى وهماً ، سرعان ما يتبخر .

وبعد مرحلة من محاولة استقلال المصالح والقرار الوطنى . عدنا مرة أخرى إلى استعمار المصالح ، بل واستعمار القرار السياسى . وكان ذلك تحت مظلة الانفتاح الساداتى ، حيث عادت منظومة الهيمنة للاكتمال . ونشط وكلاء الغرب فى المجال الثقافى والاقتصادى والاجتماعى ، من خلال مظلة واسعة من شبكة المصالح . ومع تزايد الوكلاء الغربيين ، تزايدت حدة ترابط المصالح ، لتكون نخبة حاكمة لأبناء الوطن ، ومحكومة من العالم الغربى .

نعم ، إننا لا نعانى من استعمار عسكرى خارجى . ولكننا نواجه استعمارا اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، استعمار لا يفرض نفسه من خلال الجيوش الغربية ، بل يفرض نفسه من خلال وكلاء الغرب ، إنه استعمار صناعة محلية ! ! فهل تحقق الاستقلال ؟ ! لا ، فالأفكار والقيم والمبادىء التى تحكمنا ليست منا ، والمصالح والنخب الحاكمة ، هى نموذج مفروض لم تختره الأمة ، لذلك فهو نموذج يستعمر عقل ووجدان الأمة ، ويسيطر على مصيرها وقرارها .

فالنموذج الغربى ، إذن يحكمنا من خلال رموز مصرية ، ويفرض هيمنته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومصالحه من خلال شخوص مصرية . وما تحقق على أرض مصر ، هو نفسه ما يتحقق فى العالم العربى الآن ، فالواقع أن مصر استسلمت أولاً ، بفضل التنازلات الساداتية ، وأصبح ذنبها لا يغتفر ، لأنها قادت العالم العربى إلى مرحلة التنازلات الكبرى . تلك التنازلات التى بات واضحاً أنها تقترب من التنازل عن الهوية العربية الاسلامية ، من أجل الشرق أوسطية المزعومة . وما يحدث الآن فى الساحة العربية يحقق للغرب ما لم يستطع تحقيقه بقوة السلاح ، مضافاً له ميزة هامة ، وهى أن الاستعمار اكتسب ملامح عربية ، فأصبح من الصعب أن تعرفه وتميزه وتناضل ضده .

وملامح الاستعمار المحلى ، لا تختلف عن الاستعمار الخارجى السافر ، مما يؤكد أن النتائج والغايات واحدة . فوكلاء الغرب المحليون ، من حكام ونخب ، يقومون بدور السلطة الأعلى ، المالكة للرسالة الحضارية ، رسالة التقدم والرخاء . وهى نفس المبررات التى ساقها الاستعمار نفسه ، عندما جاء ليحتل بلادنا ، تحت زعم أنه صاحب رسالة حضارية تجاه الشعوب المتخلفة .

نفس هذا الأمر يتكرر الآن ، فمثقفو الليبرالية يعلنون جهاراً نهاراً ، أنهم يحملون القيم التى ستغير هذا المجتمع المتخلف ، وتحقق التقدم . وتلك اللغة ليست بلا دلالة ، بل إن دلالتها تكشف النقاب عن أصلها فالنظر للمجتمع بإعتباره متخلفاً ، أى ككل سلبى ، يعنى ضمنا أننا نحتاج لإزالة ملامح هذا « الكل » ، وإكسابه ملامح جديدة ، مما يؤدى إلى إزالة « التخلف » وزرع «التقدم » . وهذه الفكرة استعمارية الشكل والمضمون ، لأنها تصور الأمة باعتبارها كيانا ماديا ، يمكن أن تنزع ملامحه ، وتزرع غيرها . وبهذا يصبح تبديل القوة الحاكمة بالسلاح ، قد تحول إلى تبديل العقول بالإغراء .

ومثقفو السلطة ، يفعلون نفس الشىء تقريباً ، عندما يوجهون خطابهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخلاقى المتعالى للجماهير ، باعتبارها ابناعاقا ، يجب إخضاعه للسلطة . مما يعنى ضمناً أن هناك من يعرف مصلحة الجماهير أكثر منها ، وهو الحاكم بالضرورة . والحاكم الذى يحمل رسالة إقامة دولة الحداثة ، الدولة القوية ، ورسالة إدخال الدولة فى النظام الدولى ، هو القائد الذى يقود الشعب / القطيع ، بما يعرفه من مصلحة هذه الأمة التى لا تعرف مصلحتها .

النموذج واحد إذن ، نموذج قوة حاكمة مسيطرة متعالية ، تعرف «الطريق» وحدها ، فى مواجهة شعب جاهل متخلف ، يحتاج لمن يقوده . ولأن النخبة الحاكمة هى التى تعرف فعلى الشعب « الجاهل » ، أن يطيع ، لأنه يضمر الفضل لهذه النخبة التى جاءته دون أن يصنعها هو ، لتنقذه من تخلفه . وهذه النخب تقدم للجماهير مشروع الحداثة والتقدم ، أى تقدم لها المشروع الغربى ، وتقوم بدور الوكيل الذى يدين للغرب بالفضل ، والذى تتحقق مصالحه فى الغرب . فالدول الغربية هنا ، هى المعلم وصاحب الأفكار ، والمسيطر على المصلحة الرأسمالية النهائية ، وهى مانح الأجر . فكل وكلاء الغرب يتقاضون أجورهم من دول غربية ، والفرق أن الأجر يسمى أحيانًا منحة أو قرضا ، أو بعثة دراسية ، أو فرصة عمل ، أو إلقاء محاضرات ذات أجر عال ، أو فرص مؤتمرات دولية ، وكلها أشكال للمصالح تتولد عنها منافع ، تشد الوكيل الغربى إلى مصادر خارج حدود وطنه .

وهكذا تكتمل صورة استعمارية كاملة ، ويحقق الغرب رسالته ، باعتباره صاحب رسالة حضارية ، لم يستطع أن يحققها بقواته العسكرية المستفزة للمشاعر الوطنية ، فأصبح يحقق هذه الرسالة من خلال وكلائه المحليين . وبهذا أصبح الغرب فى صورة تبعده عن استخدام القوة ، يجمل وجهه ، ويدفع بوكلائه للوقوف فى وجه أمتهم . وتدور عجلة الهيمنة الغربية ، تحت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تهديد السلاح ، ولكنه هذه المرة سلاح الأنظمة المحلية الحاكمة . فالحداثة كنموذج مفروض من أعلى ، تحتاج لقوة السلاح ، حتى تصبح الجماهير متلقية ، ولا تشارك فى القرار ، لأنها جماهير « متخلفة » .

لهذا سنجد أن خطاب الحاكم ، مثل خطاب النخبة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، يؤكد دائماً على معوقات تحقيق التقدم والتنمية ، وفى كل مرة نكتشف أن المعوقات هى الجماهير نفسها ، عددها ومواليدها ، وتقاليدها وأعرافها ، وأفكارها وقيمها . وهى نظرة استعمارية تبارى نظرة المستشرقين ، فى غلوها ، وابتعادها عن جوهر الأمة وهويتها ، وعجزها الواضح عن فهم الأمة . فالاستعمار المحلى ، ليس إلا واجهة للقوى التى تقف خلفه ، وتحركه كالدمى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ديمقراطية التكفير

فى كل نظام هناك ثوابت وأساسيات ، أى معايير أساسية ، توضع من أجل تحديد التوجه العام للنظام . وبالتالى اختيار مساراته الأساسية . وفى الفترة الماضية ، ومنذ ثورة يوليو ، وضعت معايير مختلفة للعمل السياسى ، وتوجهاته الأساسية . وكان منها نظام الحزب الواحد ، أو تحالف قوى الشعب ، والذى تحول بعد ذلك إلى النظام الديمقراطى . ومنها كذلك التوجه الاشتراكى ، والذى تحول إلى نظام رأسمالى .

والمشكلة الحقيقية فى هذه التوجهات ، أنها لم تحظ بالمبررات الكافية ، وبمعنى أكثر دقة لم تحظ بالشرعية . فحتى يكون النظام شرعيا ، عليه أن يمر بعدد من المراحل والإجراءات ، التى تبرر وجوده ، وتثبت أنه تعبير عن اختيارات الأمة . ولكن ما حدث على أرض الواقع ، كان أمرا آخر . فكل نظام سياسى ، يتجسد فى شخصية الحاكم على وجه الحصر ، وكذلك الجماعة الحاكمة ، كسياق محيط يحدد مجال النفوذ والمشورة . ولهذا كانت الأنظمة تبدأ بإعلان الحاكم للتوجه السياسى الجديد الذى يختاره . ثم تقوم الجماعة الحاكمة ، بكل أدواتها ، أى مؤسسات الحكم والدولة معاً ، فى نشر التوجه السياسى الجديد وتعبئة الجماهير حوله . ويجرى ذلك غالباً ، من خلال طرح المبررات ، وتحديد تصور عن الوضع فى النظام الجديد .

وفى هذا المناخ ، ساد التحول من نظام إلى آخر ، تحت دعاوى تتراوح بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقييم النظام السابق ، وإثبات فشله ، إلى التأكيد على أن النظام الجديد هو اختيار العصر . وهكذا دارت عجلة المحاولة والخطأ ، وكان لحمها وسداها استيراد أنظمة غربية وتطبيقها على المجتمع المصرى ، ثم التجاوز عنها باعتبارها فاشلة ، وفرض نظام جديد ، وهكذا .

ونظرة سريعة لما حدث ، تؤكد أن الجماهير لم تأخذ هى مبادرة اختيار نظام وترك آخر ، بل الحكام كانوا ومازالوا هم أصحاب المبادرة ، وأصحاب الحق الوحيد فى اختيار نظام الحكم وتوجهاته . بهذا أصبحت الجماهير سلبية تماماً ، حيث يفرض عليها نظام ويتم التأكيد على أهميته ونفعه . ومن خلال التغيير فى الأنظمة الحاكمة ، وتغيير البرامج والتوجهات ، زادت درجة سلبية الجماهير، لأنها ببساطة واجهت حالة فريدة ، حيث يتم إقناعها بالفكرة ثم عكسها . مثل إقناع الجماهير بالحزب الواحد ، ثم تعدد الأحزاب ، وكذلك الاشتراكية ثم الرأسمالية ، وأيضا إقناع الجماهير بالحل العسكرى للاحتلال الإسرائيلى ، ثم إقناعها بالحل السلمى .

أدى ذلك فى النهاية ـ حسب تصورنا ـ إلى أن الجماهير أصبحت لا تمارس حقها ، وبالتالى تخلت عن مسئوليتها . فعندما ينزع من الأمة ، حق اتخاذ القرار ، تنزع الأمة عن نفسها أى مسئولية تجاه ما يحدث حولها . ويحولها الموقف السلبى إلى مشاهد ، يراقب الحكومة ، ليحدد مدى نجاحها من فشلها ، ويحدد موقفه بعد ذلك ، وهو موقف الصمت غالباً ، ثم التمرد أحياناً . إن هذا الوضع ، أدى إلى عزل الجماهير عن مجمل السياسات التى تمارسها الحكومة ، مما جعلها فى النهاية تأخذ موقفاً شديد الخطورة . فالسلبية ترجمت فى النهاية إلى موقف من يرفض المشاركة فى أمر لم يقرره . فالحكومة تضع السياسات وعليها أن تنفذها ، أما الجماهير فليست ملزمة بهذه السياسات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمكنها أن تتهرب منها . والأهم من ذلك ، أن الجماهير لم تعد تشارك فى مشروع مستقبلى يحقق للأمة التقدم المنشود . ونتصور أن هذا ، قد أدى فى النهاية ، إلى مواقف من الشعب نفسه من شأنها أن تعطل ما تقوم به الحكومة ، أو على الأقل مواقف لا تساعد الحكومة على إنجاز ما تريد .

والحقيقة أن الحكام ونخبهم ، قد أعلنوا سياسات وتوجهات ليست من إبداعهم ، بل تم نقلها من خلال وسيط ، وهو النخبة المثقفة ذات التوجه الغربى . فأصبح الحاكم يقتبس أفكار هذه النخب وينفذها . وهكذا توالت السياسات ، وفى كل مرة لا يتحقق الهدف ، يتم التخلص من المسئولية عما حدث . ويحدث ذلك خاصة مع تغير رئيس الجمهورية ، حيث يتنصل اللاحق من مسئوليته تجاه السابق . تحت افتراض مستمر متكرر ، وهو أن ما حدث أصابه الخطأ ، وما يحدث هو الصواب . بالطبع يختلف هذا الوضع بين مبارك والسادات ، حيث يمثل الأول امتدادا للثانى فى الكثير من السياسات .

وهكذا مع منتصف السبعينات ، ظهر الاتجاه نحو الديمقراطية . لتأخذ أشكالاً متعددة ، تحت مبررات مثل التدرج ، وتهيئة الشعب حتى ينضج ويمارس الديمقراطية . ومع تسعينات القرن العشرين ، وصلنا بالكاد لما يسمونه « بالديمقراطية المقيدة » ، وهى شكل مشوه للديمقراطية . ويبدو أن هذا شأن كل الأنظمة المستوردة المفروضة على الأمة فهى أنظمة غربية إلا كثيرا . والواقع أن معظم التجارب فى القرن العشرين ، لم تكتمل ولم تنجح ، ويتم التحول عنها ورفضها وهكذا . والأكثر طرافة من ذلك ، أن الخمسينات تميزت بتوجه رأسمالى ، ثم بعدها فى الستينات ظهر التوجه الاشتراكى ، لنعود فى السبعينات للتوجه الرأسمالى . وكأننا ندور فى حلقة مفرغة ، فلم نصل إلى النظام الملائم لنا ، ولم نحصد فى النهاية إلا تجارب غلب فشلها على نجاحها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورغم عدم شرعية هذه السياسة فى الاقتباس من الغرب ، وفرض الأنظمة على الأمة ، إلا أن الخيار الديمقراطى صحبه حملة إعلامية مكثفة من معظم النخب الحاكمة ، أوصلتنا إلى وضع يظهر فيه بوضوح أن الديمقراطية الآن هى معيار العمل السياسى وشرطه الأساسى . ولكن هذا المعيار يطبق بأساليب جد غريبة ، فنظام الحكم المنوط به تنفيذ النظام الديمقراطى ، يمارس من الأساليب ما يجعل الديمقراطية هى وسيلة لتأييد نظام الحكم فقط . فهى ليست مشروطة ومقيدة ، بل هى خالية من تداول السلطة ، وخالية أحياناً من حرية التعبير عن الرأى .

وعلى الجانب الآخر ، اتفقت النخبة الحاكمة ونخبة المثقفين المتغربين على أن الديمقراطية شرط لأى تيار سياسى ، يريد العمل السياسى . ومن خلال هذا المعيار ، أصبحت هناك قوى يلزم استبعادها والقضاء عليها ، لأنها غير ديمقراطية . وهناك قوى أخرى تدعو للديمقراطية ، وتصر النخب على أنها تدعى الديمقراطية ، ولكنها سيئة النية ، ولذلك يلزم استبعادها . وهكذا أصبحت الديمقراطية تقاس بالنيات وأصبح من يقبلها عن نية خالصة مؤمنا ، ومن يقبلها عن نية غير خالصة كافرا . وتحولت الديمقراطية إلى أداة تعصف بتيارات سياسية عديدة ، وتبيح دماء البعض ، وتبيح حرية البعض ، ومن لا يطوله العنف الرسمى ، تطوله المحاكم ، وعلى رأسها المحاكم العسكرية .

فهل أنت ديمقراطى ؟ نعم إنه السؤال الهام والأساسى الآن ، فإذا كانت بعض التيارات الإسلامية تشددت حتى بدأت تفتش عن النيات وتسأل هل أنت مؤمن ؟ فإن قوى التقدم والاستنارة تفتش عن النيات وتسأل هل أنت ديمقراطى ؟ والحل بالطبع ليس فى الإجابة بنعم أولا ، ولكن فى تحديد خفايا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القلوب ، وبدأ الجميع فى البحث فيما داخل الصدور ، فانطلقت حرب التكفير.

وحرب التكفير لها دلالة هامة ، فهى تشير إلى أن هناك معسكرات سياسية ، ذات حدود واضحة ، وأنَ كل معسكر يأخذ وضع الاستعداد تجاه المعسكر الآخر . فهى حالة من الاستنفار السياسى . ولذلك ، علينا أن نؤكد أن الإيمان فى الصدور ، فليس لأحد أن يسأل عن إيمان الآخر ، ويتصور أنه يعرف ما يبطن . ولكن عندما يكون السؤال / الاتهام حول الديمقراطية ، فإن الموقف يزداد تعقيداً . فعلينا أن نعرف ما المقصود بالديمقراطية . فهل قبول الديمقراطية ، يعني قبول النموذج الغربى واتباعه ؟ فإذا كانت الإجابة بنعم ، فإن ذلك يعنى أن فرض الديمقراطية على الجميع ، يعنى فرض النظام الغربى على الجميع أيضاً . وتصبح الديمقراطية بحق ، هى نظام لتكفير كل من يخرج عن النموذج الغربى ، واتهامه ليس بالكفر المخرج من الملة ، بل بالكفر المخرج من الوطنية ، ثم هو الكفر الذى يسقط كل الحقوق السياسية ، ثم وذلك هو الأهم ، أن عملية التكفير على ملة الديمقراطية ، تؤدى إلى استحلال دماء الآخرين وحريتهم وإنسانيتهم .

إن الأمر جد خطير ، فإذا تصورنا أن هناك من يحاول فرض نماذج تراثية متطرفة بقوة السلاح ، فإننا أيضا نواجه فرض الديمقراطية بقوة السلاح . لأن الشعار صنع فى الغرب ، وحمله وكلاؤه ، ثم وضعته أجهزة الإعلام موضع القداسة ، ثم بدأنا نحاكم تيارات كثيرة على محك هذه القداسة المستوردة . والواقع أن التيارات الإسلامية هى المستهدفة من هذه العملية . وهى التى تم «تكفيرها» جميعاً ، لأنها خارج ملة الديمقراطية . ولذلك تم استحلالها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والخطورة هنا ، أن الديمقراطية كمعنى مقدس ، وملة تفرض على الجميع ، ولا مكان فيها لقبول الآخر ، أصبحت رأس حربة فى مواجهة تيارات التراث ، أى الحركات الإسلامية بكل فصائلها ، ومعنى ذلك أن التراث يقبل أو يرفض ، حسب انتمائه أو إيمانه بالديمقراطية . وهكذا أصبحت الديمقراطية أكثر قداسة من التراث نفسه ، وأصبحت الحضارة الإسلامية ، كمشروع نهضة وعمل سياسى ، تحتاج حتى تمنح الشرعية ، إلى صك يؤكد ديمقراطيتها ، وهذا الصك لن يمنح لها إلا من النخبة الحاكمة المتغربة .

لذلك نؤكد أن محكات الشرعية الحقيقية يجب أن تنبع من التراث ، لا أن تفرض عليه . حيث إن التراث ، هو تلك القيم والأفكار والمبادىء ، التى تحملها الأمة جيلاً بعد جيل . ومن خلال إيمان الأمة بتراثها وثوابتها ، تتحول تلك القيم والمبادىء إلى معيار للشرعية . ولذلك علينا أن نسأل عن شرعية الديمقراطية من خلال منظومة المبادىء التى تحملها الحضارة الإسلامية ، حضارة الأمة ، وليس العكس . فإذا كانت الديمقراطية تحمل معانى تتلاءم مع تراث الأمة ، فهذا ما نقبله ، أما ما يخالف تراث الأمة فلا يمكن قبوله . فالقداسة لأصولنا ، ولن تكون لأصول الآخرين . بمعنى أن القداسة بالنسبة لنا ، تمنح فقط للقيم التى توارثتها الأمة ، والتى تؤمن بها .

والأفضل فى رأيى ، أن نعتبر تجربة الغرب الديمقراطية ، دافعا لنا لنؤكد جوانب التسامح فى حضارتنا ، فيما يخص الممارسة السياسية . وبالتالى فإن المستحسن أن نخرج القيم التى ننتمى لها ، ونعيد طرحها وتطويرها . ومن داخل الحضارة الإسلامية ، تظهر أهمية التعددية كإيمان أصيل للأمة ، كذلك توسيع قاعدة المشاركة فى القرار السياسى بين الجماعات المكونة للأمة ، ويصبح تداول السلطة بين التيارات المعبرة عن الأمة ، رهنا بالاتفاق فى الفروع ، والإجماع فى الأصول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمعنى آخر ، إن مصطلح الديمقراطية ، مقبول إذا كان يعنى تحقيقا لمبادىء الممارسة السياسية الممثلة لأمتنا ، وهو مصطلح مرفوض إذا كان يعنى تحييد تراث الأمة ، وفرض النموذج الغربى . ولكن الأفضل من ذلك ، أن نعبر عن أفكارنا من خلال مصطلحاتنا الخاصة فهل هذا يعنى « الكفر» بالديمقراطية والخروج من دائرة الشرعية المفروضة علينا ، مما يعنى استحلال الحقوق السياسية على أقل تقدير ؟! وهل وصلنا إلى الحالة التى لا نستطيع أن نعبر فيها عن أنفسنا إلا بعد الحصول على « صك الغفران » من الحضارة الغربية عن طريق وكلائها المحليين ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دمقرطة الإسلامى

منذ ثمانينات القرن العشرين خاصة ، والمجتمع العربى يناقش قضية الديمقراطية فى الحركة الإسلامية . والحقيقة أن النقاش انحصر فى فرض شرط الديمقراطية على الحركة الإسلامية ، ثم رفض أى إعلان ديمقراطى منها ، على أساس أنه إعلان وهمى . ولعل تجربة الجزائر ، هى الرمز المعاصر لتلك الإشكالية . فالقوى الإسلامية فى الجزائر وافقت على شرط الديمقراطية ، وسمح لها بدخول اللعبة السياسية والانتخابية ، وعندما ظهرت قدرتها على الوصول للحكم ، انقلب العسكر عليها ، ومعهم بعض النخب والقوى ، وأوقفت العملية الديمقراطية ، حتى لا تكون وسيلة لوصول الإسلاميين للحكم .

ومع حادثة الجزائر الشهيرة ، تحولت أقلام النخب العلمانية إلى إشعال فتيل الحرب ضد القوى الإسلامية . وكان شعار الحرب ، أن القوى الإسلامية تؤمن بالديمقراطية « لمرة واحدة فقط » . أى أنها تؤمن بأن الديمقراطية وسيلة حتى تصل القوى الإسلامية للحكم ، ثم تقوم هى بإيقاف العملية الديمقراطية تماماً . وهنا تجسد رأى يؤكد أن المقولات الديمقراطية للحركات الإسلامية ، ليست إلا شعارا خادعا ، لا تؤمن به هذه الحركات نفسها . وبذلك تم تعميم الحدث الجزائرى ، وتحول إلى مطالبة حكومية ونخبوية بمنع التيار الإسلامى من دخول اللعبة السياسية تماماً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هنا تفاقم المشهد الجزائرى ، بصور متعددة ومختلفة . ففى الجزائر تحولت الدولة ككيان رمزى إلى وهم ، وجرفت البلاد إلى حرب عصابات مستمرة راح ضحيتها الآلاف . وبعيداً عن الجزائر ، تحولت الساحة السياسية إلى حرب معنوية بين تيار العلمانية وتيار الإسلامية ، مما أدى إلى حالة بها الكثير من الانقسام والتفكك . وكأن الدول العربية مقبلة على صراع حضارى داخلى ، وأنها أصبحت ساحة لمعركة دولية ، تقودها أطراف محلية ، وكأننا أمة تأكل نفسها .

ولكن المشكلة لاتقف عند هذا الحد ، بل تحولت بالفعل إلى توجهات شديدة العمق ، تفعل فعلها فى بنية الأمة نفسها ، وتركيبها الأساسى . فأصبحنا أمام مأزق حقيقى ، لايمكننا الخروج منه ، إلا بتجاوز الإشكاليات الأساسية لهذه الأزمة .

نعنى بذلك أن شرط الديمقراطية كقاعدة للعمل السياسى ، تحول إلى معيار تملكه القوى العلمانية ، فأصبحت هذه القوى هى المسيطرة على المفهوم ، وهى الداعية له . وعلى هذا الأساس ، أصبحت هناك فئة محددة تملك أن تقرر ديمقراطية القوى الأخرى من عدمها . ويتعقد الموقف ، بسبب تبنى هذه القوى فى معظمها للنموذج الحضارى الغربى ، مما جعلها وكيلا للحضارة الغربية ، وفى نفس الوقت صاحب الحق الوحيد فى قبول ورفض القوى السياسية الأخرى ، وتحديد مدى صلاحيتها للعمل السياسى . وبهذا فرض النموذج الغربى باعتباره الإطار المرجعى لتحديد « الشرعى » وعزل « غير الشرعى » .

أدى ذلك بالضرورة لأزمة « الإسلامى » ، فأى طرح إسلامى يوضع على معيار غربى ، حتى يتم قبوله أو رفضه . وفى ذلك إجحاف سيؤدى بنا إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مهالك حقيقية ولنتتبع أثر ذلك على حياتينا الثقافية والسياسية . فعلى الجانب الثقافى ، أصبح « الإسلامى » مرفوضا مادام يخرج عن قواعد المحك الغربى ، وهنا ظهر « الإسلامى » المقبول ، ولم يكن هو إلا فكرا إسلاميا يسمى «مستنيرا» ، وفى مضمونه لا نجد إلا نموذجا غربيا يتحلى ببعض الزخارف الإسلامية . وبهذا تصاغ الحياة الثقافية على أساس الصدام بين « الإسلامى المستنير » و « الإسلامى المتطرف » . والأول مستوفى الشروط الغربية ، أقصد شروط الديمقراطية ، والثانى خارج عنها بالضرورة . والمشكلة هنا أن «المستنير» على محك التراث والتاريخ ومرجعية الأمة ، ليس إسلاميا . والأزمة الأهم ، أن « المتطرف » أصبح وعاءً يشمل كل من يتبع مرجعية الأمة . لذلك اختفى تدريجياً من قاموسنا الثقافى ، وصف « الاعتدال » ، وهكذا بدأنا فى تشكيل وعى مشوه جديد .

فمن داخل مرجعية الأمة ، تخرج تيارات عديدة ، بعضها « متطرف » ، وبعضها « معتدل » وكل من التطرف والاعتدال ، يلتصق بفكرة أو أخرى : نعنى بذلك ، أن من داخل مرجعية الأمة هناك تيارات متعددة ، لها مضمون مختلف ، فمثلاً هناك تيارات تسيد « الحق » على « العدل» ، وتيارات تجعل الحق محققا بالعدل . ومع تنوع أطروحات التراث من حيث المضمون ، هناك جانب آخر للتصنيف ، وهو تمييز يسرى على كل تيار وكل فكرة ، يتضح فى صياغة الفكرة وتحديد معاييرها ، وأساليب تنفيذها . ومن هنا يظهر التطرف والاعتدال .

ولكن إدخال معيار الديمقراطية كمرجع رمزى للحضارة الغربية ككل ومنظومتها العلمانية ، أدى إلى إعادة تصنيف التطرف والاعتدال الإسلاميين ، بوصفهما توزيع أدوار ، واختلاف أقنعة ، وتم سحب رخصة « الديمقراطية »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من كل التيارات ذات النزعة التراثية والإسلامية . وضمنا أصبح التراث مصدرا للشمولية والرجعية وإهدار الحقوق . وعلى هذا ، ظهر تصنيف الاستنارة / التطرف . وهو ليس خطا متصلا ، به اختلافات فى الدرجة ، وتنويعات متتالية ، مثل تصنيف التطرف / الاعتدال ، بل هو تصنيف فئوى ، به فئتان ، كل منهما منفصل عن الآخر . فإما أن تكون مستنيراً ، وديمقراطياً ، وعصرياً ، وتقدميا ، وعلمانياً ، أو تكون متطرفاً ، وأصولياً ، ومتخلفاً ، وظلامياً ، وإرهابياً .

والواقع أن هذا التصنيف ، يغلق كل أبواب الاختيار ، لأنه يطرح بديلين ، الأول هو الانتماء للمنظومة الغربية ، والثانى هو الخروج من رحمة النخب صاحبة الحق فى قيادة هذه الشعوب المتخلفة . ويمكننا أن نقول أيضاً ، إن الخيار هو بين ممارسة العمل السياسى ، أو عدم ممارسته ، وهنا نأتى للجانب السياسى الهام . فمحك الديمقراطية أصبح هو الفاصل بين ممارسة دور سياسى ، من عدمه ، وهو أيضاً محك فاصل بين الحياة خارج السجن أو داخله .

بهذا أصبحنا فى أزمة ثقافية وسياسية ، أزمة الإسلامى ، لا بل أزمة حضارتنا برمتها . وهى أزمة تتجاوز بالفعل « شرط الديمقراطية » لتكشف على أنه غطاء « لشرط التغريب » . فإذا لم ترفض الأطروحات التراثية ، سياسياً ، لعدم ديمقراطيتها ، فهى ترفض ثقافياً ، لأنها منافية لحقوق الإنسان والأقليات . . وهكذا . وباختصار ، فإن استخدام المرجعية الغربية كشرط ، لايعنى سوى الخروج عن مرجعية الأمة تماماً ، مع الاحتفاظ ببعض الملامح الفلكولورية المتحفية ، ذات قوة الجذب السياحية .

فهل تجوز «دمقرطة الإسلامى» ؟! والسؤال بشكل آخر ، هل « الإسلامى»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معاد للديمقراطية ، ولحقوق الآخرين ، وللعصر ، حتى يشترط أن يمر بعملية « دمقرطة » قبل السماح له بالنشاط ؟ وهل هذا يعنى مجرد تطوير «الإسلامى» ، أم إنه يعنى تحويله إلى شىء « غير إسلامى » ؟! .

المشكلة فى ظنى ، تكمن فى الاعتقاد بأن تراثنا يميل إلى تعسف « غير إنسانى » ، ولذلك لا يجوز أن نلجأ له ، إلا بعد أن نجعله « إنسانيا » . وهذا الاعتقاد على درجة كبيرة من الخطورة . لأنه اتهام يوجه أساساً إلى صلب انتمائنا الحضارى ، ويمكن أن يشوه رؤيتنا لذاتنا تماماً . الأمر الآخر ، الأكثر أهمية ، أن هذه الرؤية عنصرية ساخرة ، والأعجب أن تأتى العنصرية من «عربى » ضد « العروبة » ، ومن « إسلامى » ضد الإسلامية . نعم ، الأعجب أن نكون أصحاب رؤية عنصرية ضد أنفسنا ، فهو أمر قد يكون جديداً وفريداً فى تاريخ البشرية .

فهل علينا أن نختار بين الإسلامى والديمقراطى ؟ الواقع أن السؤال فى حد ذاته خطأ منذ البداية ، وتناولنا للقضية دخيل بقدر ما هو مدمر . فإدخال شروط النموذج الغربى ، على تراثنا ، يعنى هدم التراث ، واللحاق بالنموذج الغربى . ولذلك علينا أن نعيد طرح القضية بأسلوب آخر ، أسلوب الباحث عن شروط وقواعد الحياة الثقافية والسياسية . وكأى أمة ، علينا أن نحدد الشروط من أنفسنا وبأنفسنا ، نحدد الشروط التى تخرج منا ، ومن مرجعيتنا ، بما يؤدى إلى تطوير التراث ، وإخراج أفضل ما فيه ، فيصبح الماضى بكل تجاربه دافعا للمستقبل ، ودافعا لتجاوز سلبيات الماضى ، وأيضاً تجاوز إيجابيات الماضى إلى إيجابيات أفضل منها . لذلك علينا أن نبحث عن شروط العمل المستقبلى ، حتى نستطيع أن نتحرر من هيمنة الغرب ، وأيضا نتحرر من الجمود المنسوب للتراث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما نحدد شروط العمل الثقافى والسياسى ، يمكن أن نسميها ديمقراطية ، أو نختار لها اسما أفضل وأكثر تعريباً وتعبيراً عنا . فإذا كنا بالفعل نحتاج « للديمقراطية » وأظن أنها احتياج بالفعل ، فعلينا أن نعرف هذا الاحتياج ونحرره من أسر الأطروحات الغربية .

فنحن كأمة ، نحتاج إلى « التعددية » ، أى الاقتناع الكامل ، بأن الأفراد والجماعات تتعدد ، وبالتالى تتعدد أطروحاتها . وفى التعدد هناك صواب وأصوب ، فالتعدد بين أنداد ، والاختيار بين بدائل . والتعددية تكتسب فاعليتها ، من إعطاء الحرية للجماعات حتى تنظم نفسها وتعبر عن توجهاتها ، فتظهر المذاهب والأحزاب والتيارات . ومن تعدد تلك الكيانات تزدهر الأمة ، فالتعدد شرط الازدهار. بمعنى أن ظهور توجه واحد ، أو تيار واحد ، هو شرط الأفول ، وتعدد الأطروحات شرط الازدهار ، وسبب حيوية المجتمع ، ومصدر الإبداع والتجديد . والاختيار فى التعددية ، ليس منحاً للسلطة لبديل دون غيره ، بل أن كل البدائل لها حق الوجود والمشاركة والنشاط دائماً ، وحقها تكتسبه من مؤيديها وفاعليتها ودورها . والبديل الذى يحظى بالأغلبية ، يصبح البديل القائد ، ولكن تحت قاعدة أن القائد ند بين أنداد . ويظل المحك الرئيسى لعناصر التعددية ، أن كلا منها يعبر عن جماعة تنتمى للأمة ، والمفاضلة بينها ، وهى مفاضلة بين أنداد ، تقوم على المحك الأساسى الجوهرى ، وهو أن الأمة مصدر السلطات .

بالطبع ليست الكلمات السابقة نظاماً ، نقبله أو نرفضه ، بل هى مجرد كلمات تفتح الأذهان للتفكير . ونضعها هنا لنؤكد أن « شرط الديمقراطية » ليس هو الحل الوحيد للحفاظ على حريتنا وحقنا وإنسانيتنا ، ونؤكد أيضا أن كل حضارة « إنسانية » فى جوهرها وأن كل حضارة تخلق لأمتها أسباب السعادة والكرامة والعزة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بـالإضافـة لـذلك ، فـإننا نتصـور أن « شرط التعـددية » يتجـاوز « شرط الديمقـراطية » لأنـه أكثر احتراماً لتميـز واختلاف الجماعـات ، وأكثر رحـابة لقبول الجميـع فهل يمكن أن نضع « شرط التعـددية » محكاً للعمل السيـاسى والثقافى ؟ وهل يمكن أن نسيده على « شرط الديمقراطية » نفسه ؟

أتصور ذلك ، إن التعددية قاعـدة أساسية لبناء الأمة ، وإنها شرط حياتها وازدهارهـا ، وإنها أيضا قيمـة أساسية حملهـا الأجداد ، وحققـوا بها إنجازات أبهرت العالم . أعنى بذلك أن « التعددية » قيمة مرجعية فى تراث أمة العرب ، وقيمة جوهرية فى المرجعية الإسلامية . فهل مـازلنا نحتاج لدمقرطة الإسلامى حتى نمنحـه حق الوجـود ، أم إن تعددية الإسـلامى قـد تكون سببا كـافياً ، ودستوراً لازماً ، تعمل على أساسه ومن خلاله قوى الأمة ، المتمسكة بتراثها ، لأن التعددية تراثها ؟!!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صناع الفتنة

مع التقدم التكنولوجى ، وتطور أساليب الاتصال ، تحول الإعلام إلى أداة شديدة التأثير على وعى الجماهير ، فالإعلام المعاصر ، بكل أدواته ، تحول إلى قوة طاغية ومؤثرة . وهى طاغية ، لأنها لا تترك مساحات لحرية الفكر والاكتشاف ، بل أصبح الإعلام أداة تحدد الوعى ، بأسلوب سابق التجهيز. فالإعلام ينشر قوالب إدراكية ، يتم تشكيلها وصناعتها ، داخل أوساط النخبة، أو جماعات الضغط ، أو الحكومات . ثم تقوم الآلة الإعلامية ، بضخ فيضى هائل من المعلومات والتطورات والآراء ، فى عقل المشاهد والمستمع والقارىء ، أى عقل الشعوب . وقد أدى ذلك ، إلى خلق المتلقى السلبى . فالمواطن العادى ، لايستطيع بسهولة مواجهة الأدوات الإعلامية ، لأنه لا يملك أدواته الخاصة فى المعرفة . فالإعلام يقدم المعلومات بعد تشكيلها فى قوالب جامدة ، لاتسمح للمتلقى بنقدها أو إعادة تحليلها . فالصورة الإعلامية مركبة وموجهة ، يصعب إعادة تفكيكها ، للوصول إلى العناصر الحقيقية .

وخلال عملية صناعة الوعى ، تقدم المدركات سابقة التجهيز ، من خلال لعبة معلوماتية شديدة الخطورة . فعصر المعلومات ، كما يسمى ، ليس عصراً لحرية الحصول على المعلومات الحقيقية . بل هو عصر صناعة المعلومات . فالبيانات والأحداث والوقائع المتاحة أمام المواطن العادى ، ليست مواد خاما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولية ، بل هى مواد متحيزة ، يتم صناعتها ، حتى تعطى انطباعات دون غيرها . وعملية صناعة الوعى المعلوماتى ، معقدة لدرجة كبيرة ، كما أنها ليست عملية أخلاقية ، بل هى فى كثير من الأحيان عملية نفعية ميكافيلية . لذلك يتم معالجة المعلومات فى معامل سياسية متحيزة . وأدوات المعالجة كثيرة ، ومنها المستتر ، والسافر. فالعمليات المستترة ، هى تلك التى تعتمد على الانتقاء ، فتخفى بيانات وتظهر أخرى . وكذلك هناك عمليات المعالجة الموجهة ، التى يتم من خلالها استخلاص معلومات عامة ، من خلال حسابات ووجهات نظر متحيزة . أما العمليات السافرة ، فهى التضليل الإعلامى ، وأدواته متعددة ، تصل لحد نشر وقائع كاذبة ، أو تحريف الحقائق تماماً ، حتى تعطى مدلولاً عكس حقيقتها .

فالإعلام إذن ، أداة يمكن أن تستخدم لأغراض شتى ، ورغم مقولات عصر المعلومات ، إلا أن المتحقق حتى الآن ، هو سيادة نمط التضليل والتوجيه . وكأن عصر المعلومات ، يعنى حزب المعلومات . حيث من يملك القوة والمال ، يملك بالتالى المعلومات ، وبها يحقق سيادته على الوعى السائد .

وهذه الصورة الطاغية للإعلام ، تواجه بمحاولات شتى نحو خلق « إعلام خاص » ، يخرج من دائرة الوعى السائد والمفروض ، ويحاول أن يقدم وعيا آخر. ولعل ما يحدث فى الغرب ، من استخدام لشبكة اتصالات الحاسب الآلى ، يعد نموذجا لذلك حيث يحاول البعض ، أفراداً وجماعات ، تكوين شبكات خاصة لتداول المعلومات ، خاصة تلك التى لا تجد مكانا لها فى وسائل الإعلام ، وتظهر هنا رؤى جديدة ، تقاوم الرؤى الطاغية ، أى الحاكمة. ومع ذلك ، فإن وسائل الإعلام « الرسمى » ، أى تلك الحائزة على دعم التحالف الحاكم ، مازالت هى الأقوى والأكثر تأثيراً . ويضاف لذلك ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دور الدولة فى عملية الإعلام ، حيث إن الدولة بإمكانياتها ، قادرة على فرض هيمنة إعلامية شاملة ، يصعب فى الواقع اختراقها ، أو الإفلات من تأثيرها . مما يجعلنا فى النهاية ، نشكك فى وجود أى قدر من « حرية المعرفة » ، فالحاصل أن المتاح هو حرية قبول القوالب الفكرية والمعلوماتية المفروضة .

لهذا أصبح لزاماً علينا أن نحرر الوعى ، حتى نستطيع تحرير الإرادة ، وبالتالى تحرير المكبوت سياسياً واجتماعيا . فالإعلام الموجه ، ليس فقط معلومة مضللة ، بل هو خيال مقيد ، وإبداع أسير ، وتفكير سابق التجهيز.

والفن مرآة لهذه الأزمة . فالفن القصصى المكتوب والمعروض ، واجه قيود السياسة ، التى فرضت عليه المحظور والمسموح . ومن خلال إطلاق مساحات للمسموح ، وإظلام وإغلاق مساحات أخرى ، اتجه الفن فى ناحية دون غيرها . فغلب مثلاً الفن السياسى الساخر ، الذى هو تنفيس عن مشاعر الغضب ، تفيد الحاكم ، وتزيل موجات الغضب ، أو تحد من غليانها . ولكن كلما اتجه الفن إلى النقد السياسى العميق اقترب من منطقة المحظورات . ويبقى الفن تعبيراً حراً عن الالتزام بالخطوط الحمراء ، أو الامتناع عن التعبير ، تلك هى حدود الاختيار .

ولكن الأكثر خطورة من ذلك أن الفن تعرض لعملية توجيه سياسى مباشر، وهى عمل يجعل الفن يموت ويحتضر . وهى ظاهرة تبدأ بالتحيز السياسى الذى يجعل المبدع لايعبر عن صورة المجتمع ويجسمها ، بل يعبر عنها من خلال التزامه بتأييد طرح سياسى دون الآخر ، وهو ما يجعل الفن عاجزا عن كشف بعض الحقائق والوقائع التى لاتخدم توجها سياسيا ما . وتنتهى هذه الظاهرة ، عند حد الحظر الحقيقى، عندما يقدم الفن من خلال توجهات سياسية ، وتعليمات عليا ، ومعلومات أمنية . وتصبح وظيفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفنان، تقديم عمل فنى « تفصيل » ، حسب متطلبات وأغراض صاحب القرار . وبهذا أصبح العمل الفنى ، يرسم صورة للواقع ، ليست هى صورته، بل هى صورة الواقع الذى يريد صاحب القرار ، فرضه على المشاهدين .

وتلك بالفعل عملية تتجاوز المعقول ، وتعبر عن إحساس بالطغيان منقطع النظير . فالفن فى المقام الأول ، إحدى أدوات المجتمع حتى يعرف نفسه ، وهو أيضا إحدى أدوات تجسيد أحلام الأمة ، وتصور مستقبلها . الفن إذن ، لصيق الصلة بوظيفة اجتماعية هامة وهى التعبير عن الواقع وتجاوزه فى آن واحد . وبهذا يصبح الفن إحدى أدوات إنهاض وجدان الأمة ، لتكتشف واقعها وتتجاوزه .

ولكن الفن الموجه ، أصبح أداة أخرى ، شديدة الخطورة ، فهو فن يفرض صورا عن المجتمع تهبط عليه من أعلى سلم الحكم . بهذا فهو لا يخرج من المجتمع ، ولا يعبر عنه ، بل « يهبط » على المجتمع ، ليفرض عليه صورة مشوهة ، فيها بعض منه وبعض غريب عليه . وكأن أجهزة الإعلام ، تعيد صياغة وقائع الحياة ، وتصنع مجتمعا وهميا ، وتخلق واقعا على قد احتياجها . وهذه الصورة الوهمية تستخدم بعد ذلك لتبرير سياسات الحكم ، وضمان استمراريته ، وإعطائه مزيداً من القدرة على إحكام قبضته على المجتمع . وبهذا يقدم هذا الفن المغرض صورة للمجتمع ، تجعله يخطىء فى إدراك ذاته ، ويبتعد عن واقعه . وكذلك تقدم له صورة عن مستقبل لا يحلم به . وبهذا يصادر الفن الموجه ، أحلام الأمة ، ويفرض عليها خيالا مشوها ، ويساعد يد السلطة حتى تمتد داخل أطياف الحلم ، ورموز الخيال .

ولكن الفن الموجه ، ليس فقط تضليلا ، بل هو أيضا عبث . فالواقع ليس ملكا لأحد ، ومن يتصور أنه يملك وحده حق تصوير الواقع ، هو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عابث بلا شك . فالواقع وقع لا محال ، وشاهده البعض ، كثرة أم قلة ، فثبت فى ذهن نفر من الناس ، وأصبح وعياً ، يمكن أن ينتقل من فرد لآخر ، ليدخل ضمن مفردات الوعى الجمعى .

لذلك فالفن الموجه يرسم صورة لواقع ، مفارقة بقدر أو آخر ، لما حدث بالفعل . والصورة التى يروج لها الإعلام الحاكم ، تصل إلى عدد كبير من البشر . وبعض المتلقين ، ليس لديهم علم عما « وقع بالفعل » ، ولذلك فإن الصورة الإعلامية ، تصبح « الواقع الوحيد » فى أذهانهم . وبعض آخر من المتلقين ، شاهدوا ما « وقع بالفعل » أو شاركوا فيه ، أو هم جزء منه . لذلك فإن الصورة الإعلامية المطروحة عليهم ، لن يكون لها أى تأثير ، بل ستصبح دليلاً حياً على التضليل الإعلامى .

هكذا يتشكل الوعى الجمعى المشوه . فالبعض يعرف واقعا ، والآخرون يعرفون واقعا غيره ، وبين الفريقين ، درجات من المعرفة يختلط فيها الواقع المصنوع بالواقع المتحقق وذلك هو أكثر درجات التشوه التى يمكن أن تصيب وعى أمة . بل هى حالة يمكن أن تحطم الحاضر ، قدر تحطيمها للمستقبل . لأن تباين الصور عبر شرائح المجتمع ، يعنى أن المعرفة الواقعية لم تعد واحدة ، ولم تعد مشتركة . ومن الطبيعى أن تختلف فئات المجتمع ، وشرائحه وجماعاته ، فى توجهاتها وأفكارها ومواقفها السياسية والاجتماعية ، ولكن ليس من الطبيعى ، أن يكون لدى كل فئة معرفة عن واقع الأمة ، فارقة تماماً لمعارف الفئات الأخرى ، وهو ما يخلق حالة من تشوه الوعى ، تجعل كل فريق يسير فى اتجاه مستقل تماماً عن الآخرين ، متصوراً واقعا قد لا يكون له وجود .

وما قيل عن الفن يقال أيضاً عن جميع أشكال الاتصال ، وكل عناصر الآلة الإعلامية . والتركيز على الفن ، بسبب تعبيره عن خيال الأمة ، وملكيته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لعالم الرمـز والأسطورة، وتلك هى أخـص خصوصيات الأمة . فـالخيال مثل الحلم ملـك صاحبـه ، ويقع فى دائرة الخاص ، والأهلى ، والشعبـى . الخيال ملك البشر أنفسهـم ، لاحكامهـم . وعندما يصبـح الخيال أسيراً للحـاكم ، والرمـز رهيناً بـالقرار السيـاسى ، عنـدئذ تصبح السلطـة قد صـادرت أحلام اليقظة ، وأحلام النوم .

وحتى نـرصد حـالة الـوعى الـراهنة ، علينـا أن نتخيل دور الإعـلام بكل وسائله وأجهزته ، أى عندما تتكامل تأثيرات المسلسل التلفزيونى ، والأخبار، والتحقيقات ، فى كل وسـائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقـروءة . وفى مقابل الصورة الإعلامية ، نجد فئات مـن المتلقين ، كما سبق أن أشرنا . ومن تفاعل المرسل والمتلقى ، تتكون ثلاثة أنماط :

١ ـ الوعى الموجه .

٢ ـ الوعى المشوه .

٣ ـ الوعى المستقل .

فالوعى الموجه ، يعبر عن وعى الفئة التى كونت معظم مدركاتها من خلال وسائل الإعلام ذات الرسائل المقصودة والمفارقة للـواقع . وهى غالبا الفئة التى تعانـى من قصـور فى قدرتها على معـرفة الـواقع مبـاشرة ، وليس لـديها أدواتها للوصـول إلى المعلومات فى صورتها الخام . ولـذلك تصبح هذه الفئـة أسيرة ما يفرض عليها من النخب الحاكمة .

والوعـى المشوه ، هو الحالـة الوسـط بين المفروض والحادث فى عالم الـواقع والمدركات . وهو وعى يتكـون لدى الفئة التى تعرف عن الـواقع قدرا لا بأس به ، معـرفة خـاصة مـن تجاربها وخبراتها ، وحياتها اليـومية ، ولكنهـا فى نفس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوقت تتعرض للصورة الإعلامية الموجهة ، وتتأثر بها بقدر أو آخر . وبهذا يصبح لديها نوعان من المعرفة ، نوع خام مستمد من الواقع ، ونوع سابق التجهيز مستمد من وسائل الإعلام . ومن خلال هذا التباين المعرفى ، يتكون الوعى المشوه ، أو الوعى المتردد ، ونقصد به ذلك الإدراك الذى يقف عند حدود الاختلاط والإبهام ، ويصعب أن يصل إلى مرحلة اليقين ، أو هو ذلك الإدراك ، الذى يصدق الشىء وضده ، ويكون منهما صورة تبدو مكتملة رغم أنها متناقضة .

أما الوعى المستقل ، فهو حالة تعتمد تماماً على الواقع كما حدث ، حيث يكون للواقع المعيش لدى فئة ما ، قوة تفوق قوة أى صور مفروضة ، حيث تكون المعايشة المباشرة ، هى أداة المعرفة . وتظهر هذه الحالة ، عندما يعرض الإعلام صورا عن موضوعات عايشتها فئة من المجتمع ، وكانت جزءاً منها . لذلك فإن الصورة المفروضة أيا كانت درجة إتقانها ، لايمكن أن تلغى ذاكرة الإنسان عما عاشه بنفسه . وعندما يملك الإنسان الوقائع نفسها ، ويكون شاهداً عليها ، أو مشاركاً فيها ، لن ينفع معه أى محاولات للتضليل .

نقصد مما سبق التأكيد على قضية الإعلام الموجه ، خاصة فى القضايا التى تمس صميم واقع الأمة ، وجوهر كيانها . ففى القضايا التى تحاول فيها الجماعات الحاكمة فرض صورة غير واقعية ، والسيطرة على وعى الجماهير ، فى هذه القضايا يتكون الوعى بأشكاله الثلاثة السابقة . فكلما حاول الإعلام طرح صور مزيفة ، كلما تطور الوعى الجمعى للأمة ، فى اتجاهات مختلفة ومتعارضة ، أى كلما زادت حدة الانقسام والصراع فى وعى الأمة . وتلك هى القضية .

إن تعدد الوعى ، فيما يخص الواقع والوقائع ، يعنى ضمناً تعدد « الواقع »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسه وبالتالى فإن كل جماعة يصبح لها « وعى » مرتبط « بواقع » ، منفصل تماماً عن مالدى الجماعات الأخرى . وبهذا ، فإن الاختلاف بين جماعة وأخرى ، لن يكون فى الموقف السياسى ، تجاه « الواقع » بل سيكون اختلافا فى الموقف والواقع معاً . ويصبح لكل جماعة أو شريحة ، عالمها الخاص ، الذى تتصوره ، ثم تحاول أن تحافظ عليه ، أو تحاول تغييره . فما هى محصلة تعدد الوعى والواقع والموقف ؟!

إن أى أمة تقوم من خلال المشترك بين أبنائها ، والمشترك لا ينفى التعدد . فهناك أسس مشتركة ، ثم تباينات وتنوع . والاشتراك فى الأصول ، والتباين فى الفروع ، هما ما يخلقان الأمة . ونعتقد أن الوعى الوقائعى ، فى حده المادى الأدنى ، هو ضمن الأصول . بمعنى أن الأحداث فى صورتها الأولية ، كمادة خام ، هى ضمن الأدوات التى تخلق مساحة للمشترك فى الوعى . ومن جملة الوقائع ، التى تخبرنا عن الماضى والحاضر ، يتشكل وعى جمعى ، من خلال الاتفاق على الحد الأدنى من المعلومات . وهذا الوعى الجمعى ، من شروط توحد الأمة . والوعى الجمعى ، بهذا المعنى ، ليس أحادية الفكر ، بل هو قدر من المعرفة المشتركة القريبة من الحقيقة ، حيث تمثل هذه المعرفة الأساس ، الذى يبنى عليه الوعى السياسى ، والموقف السياسى ، لكل جماعة أو شريحة على حدة . فالاتفاق على عناصر الواقع ، لايعنى الاتفاق على تقييمها أو على اتخاذ موقف منها ، بل إن كل فئة أو تيار ، تحدد موقفها ورأيها ، فيظهر التنوع .

نقصد بذلك أن « الوقائع » من الأصول ، والموقف منها أو الرأى تجاهها من الفروع . فالإدراك يتشكل من خلال وقائع وموقف المدرك منها . ولذلك تصبح الوقائع هى أصول الوعى الجمعى ، والانطباع الوجدانى والموقف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفكرى والسياسى منها ، هو من فروع الوعى الجمعى ، وبهذا يتحقق المشترك ، دون أن يجور على التعددية .

بهذا المعنى ، علينا أن نتصور حالة انفصال الوعى داخل المجتمع ، بوصفها معبرة عن تمزق الأمة ، وتفكيك أسس وعيها ، وبالتالى تفكيك ثقافتها . وإذا كان من الطبيعى ، أن تضم الأمة ثقافات فرعية ، فإن ذلك يكسبها ثراء وتنوعا ، مادام هناك ثقافة أساسية مشتركة ، تمثل الجامع المعرفى للأمة ، ولكن عندما تبزغ ثقافات فرعية ، ليس لها أسس مشتركة ، فإن ذلك يفكك وحدة الأمة .

والوعى بالواقع ، أساس مهم لأى بناء معرفى ، فالإدراك عملية أولية لتشكيل المعارف ، ومن خلال تكوين تصور عن الواقع ، تتحدد الانطباعات والتفضيلات ثم المواقف : معنى ذلك أن الاختلاف حول الوقائع الأساسية المحددة للظواهر الهامة فى المجتمع ، وقضاياه المحورية ، يؤدى إلى بناء تصورات معرفية منفصلة تماماً عن بعضها ، مما يساعد على نزع المشترك بين الثقافات السائدة فى داخل الأمة .

ويصبح انقسام الوعى ، هو أساس لانقسام الأمة معرفياً ، وبهذا يتحقق التفكيك ، ومنه يحدث التباعد بين جماعة وأخرى ، والذى يبدأ بشكل إدراكى ، ثم معرفى ، ثم يتحول إلى تباعد فى المواقف السياسية والاجتماعية . وإذا كان وعى الأمة يبنى على أسس متعارضة ومشوهة ، فإن مواقف جماعاتها ستكون أيضاً متعارضة ومشوهة . فالتعارض المعرفى ، بكل تصوراته ، يؤدى فى النهاية إلى تعارض المصالح ، من حيث فهمنا وتحديدنا لها ، ومن حيث الأساليب المختارة لتحقيق هذه المصالح .

مما سبق ، نتصور أن صناعة الوعى الموجه ، هى صناعة لأكثر من وعى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يختلف كل منها حول « الواقع » ، وكأن « الواقع » ليس حدثاً مادياً . ويصبح هناك أكثر من واقع . ويزداد الأمر تعقيداً ، مع تنوع وسائل الإعلام ، من إعلام رسمى ، إلى غير رسمى ، إلى معارض . وبهذا نصل إلى صورة معقدة ، ولكن عمادها الوعى الموجه والمشوه والمستقل . وتمزق الوعى ، الذى يؤدى إلى تمزيق الواقع ، وبث الوهم ، هو ما يؤدى فى النهاية ، إلى وعى متصارع ومصالح متصارعة .

فالإعلام الموجه للأغراض السياسية ، شوه ـ فى تصورنا ـ المشترك الواقعى بين أبناء الأمة ، وجعلهم أعداء بعضهم البعض . ووضع بذلك أسسا قوية ، تزرع الفتنة داخل الأمة . فصناعة الوعى الزائف ، هى صناعة للفتنة .

وفى ربوع أمة العرب ، تم ضخ الوعى الزائف بكثافة بالغة ، مما أدى إلى تفكيك الأمة معرفيا ، وتعارض مصالحها ، لحد جعلها تقترب من الفتنة الكبرى ، فتشتعل النيران أحياناً ، وتخمد أحيانا ، وتبقى سحب الدخان الكثيف ، مبشرة بقرب توهج النيران . فلماذا حدث ذلك ؟! وماهى القضية التى فجرت محاولات تزييف الوعى ؟!

إن واقع الأمة يؤكد مركزية الصراع بين الوافد والموروث . وهو صراع ظهر منذ عدة عقود طويلة . وتعددت أطروحات التراث ، وأطروحات الوافد . ولكن مع اقتراب القرن العشرين من نهايته ، ازداد إيقاع المواجهة بشكل حاد ، ومع شدة الصراع ، ظهر بالتدريج الشعور بقرب المواجهة الحاسمة . وكلما زادت سخونة المواجهة زادت درجات العنف والعنف المضاد ، لتزيد من حدة الصراع ، حتى بات واضحاً أنه يقترب من صراع الحياة أو الموت .

فى هذا المناخ الملبد بالدماء ، دارت الآلة الإعلامية ، لتفرز عشرات من الصور المزيفة ، مستغلة الوقائع بشكل يشوهها ، معلنة عن وعى موجه ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يفرض نفسه على الجميع . وتم بث عشرات من الشعارات ، تحت مظلة محاربة الإرهاب . وتجمعت الرسائل الإعلامية ، الخبرية ، والفنية ، لترسم للواقع صورة مزيفة ، تتميز بالقتامة ، وتثير النفور . صورة الهدف منها ، لا نقل الوقائع ، بل تحويلها إلى رمز أسطورى للشر . وفى مقابل ذلك ، تم بث صور وردية ، لشعارات وافدة ، حتى تصبح هذه الشعارات ، هى البديل الوحيد . ويوضع وعى المتلقى ، بين صورة سلبية تماماً ، تمس فى الواقع تراثه ، وصورة وردية تماماً ، تأتى من قيم مجتمع آخر .

إن الزيف الإعلامى ، اختزل التراث بكل تاريخه ، واختزل الحركات الإسلامية بكل إنجازاتها ، إلى السلبية المنتسبة للتراث ، وهى العنف . فالعنف قد ظهر دفاعاً عن الذات ، فانتمى للتراث ، وأصبح إحدى سلبيات إعادة بناء الذات . وعندما اختزل كيان المجتمع ورموزه وأحلامه ، فى العنف ، واختزل الآخر الغربى وهيمنته واستغلاله ، فى شعارات براقة ، ثم تم ضخ هذه التصورات بكثافة هائلة ، عندئذ ظهر الوعى الزائف ، وانقسم وعى الأمة ، وتعارضت مصالحها .

إنها الفتنة الكبرى ، بلا شك ، تلك التى تفرزها أجهزة الإعلام الموجه ، عندما تخلق وعيا زائفا ، حتى تدير معاركها السياسية . فالنتيجة النهائية ، هى هذا المناخ الراهن ، المعبأ ببذور الفتنة ، فهناك جماعات تمثلت الوعى الموجه المفروض ، وأصبحت تجد مصلحتها فى الخلاص من التراث ، والحركات الإسلامية ، وبالتالى أصبحت مصالحها رهنا بما يمكن تحقيقه من التحاق بالغرب ، وسيادة للإرادة الأمريكية الإسرائيلية المشتركة . وهناك جماعات ترفض الوعى الموجه ، وتحركها رؤيتها المباشرة للوقائع ، وبالتالى ترى أن الآلة الإعلامية ، والجماعات المصدقة لها ، بمثابة أعداء لتراث هذه الأمة . وبالطبع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإن بين الفـريقين درجات ، من التشـوه ، والحيرة ، والقلق ، درجـات تتميز بحالة من التردد ، تدفع للسلبية والصمت .

إن صناع الـوعى الزائف ، هـم صناع الفتنة ، فالـوعى الزائف لـن يسود فيغير الواقع الذى رسم له صورة مزيفة ، فالـواقع الحقيقى يحمل قوته من كونه حادثا بالفعل ، وبالتالى فالواقع يفرز وعيه باستمرار ، ودون انقطاع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أســـطورة الإرهـــاب

فى مواجهة ظاهرة العنف المتزايـد ، تضخمت الحملة الإعلامية تحت شعار « محاربة الإرهـاب » . وهى حملـة تستمد مبرراتها مـن أهمية مـواجهة العنـف وسفك الـدماء . ولكـن عناصر الحملة ومكـوناتها ، تشير بشكـل واضح إلى أبعاد كثيرة أخرى . فشعار « محاربة الإرهاب » أصبح شعاراً عاماً يشمل الكثير من الظواهر معاً ، ومنها بالطبع ظاهرة العنف . ورغم أن الشعار ليس دقيقاً ، إلا أنه يستخدم لبث رسالة إعلاميـة تتجاوز العنف ، لتصبح حربا على معان وعناصر كثيرة . والحملة فى النهاية ، هى حرب موجهة ضد كل فصائل التيار الإسلامى ، بـل هى أيضاً ضد المشروع الحضارى الإسلامـى ، ومختلف رموزه ومفاهيمه ، ومن هنا تتشكل الأسطورة ، التى تبثها وسائل الإعلام ، فى محاولة لتشكيل وعى طارد لجملة المنظومات التراثية .

وما تبثه وسائل الإعلام هو بالفعـل « أسطورة » ، فالإرهاب فى حد ذاته ، يعطى معنى مختلفا عن الواقع . حيـث يشير الإرهاب إلى جماعة مرتزقة ، تقوم بزعزعة الاستقرار والأمن لحساب جهة مـا ، وبهذا يتم تفريغ ظاهرة العنف من محتواهـا وأسبابها . وتتحـول إلى فعل دموى مجرد مـن أى ملابسـات . فيسهل مواجهة الظاهرة ، بفعل دموى آخـر تحت مظلة القانون . وتجريد الظاهرة بهذا الشكل ، يبرر القضاء عليها بأى أسلوب كان ، ويعفى الإعلام والحكومة من مواجهة الظاهرة على حقيقتها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فظاهرة العنف ، ليست غريبة على المجتمعات البشرية ، فى مختلف عصورها . وهى ليست ظاهرة الإرهاب ، التى تعنى مثلاً أن دولة تعادى أخرى ، فتبث بداخلها جماعات تقوم بأعمال دموية ، لهز استقرار الدولة . ففى هذه الحالة تكون الجماعات بمثابة قاتل مأجور ، ليس له علاقة بالصراع بين الدولتين ، وليس له هدف إلا الكسب المالى فقط . ولهذا يمكن أن ينتقل القاتل المأجور من معسكر إلى آخر ، بمعنى أنه يمكن إعادة تجنيده من الدولة المعتدى عليها ، ضد الدولة المعتدية . . وهكذا .

ولكن ظاهرة العنف أمر آخر ، فالعنف هو سلوك متطرف غير عادى وغير شائع ، تلجأ له جماعة أو جماعات ، تعبيراً عن موقفها الاجتماعى والسياسى . والعنف بهذا المعنى ، هو تمرد اجتماعى وسياسى . ولذلك ، فإن ظاهرة العنف لا تفهم إلا من خلال أسبابها ومراميها . فأسبابها هى المناخ البيئى الذى يفرز العنف ، ومراميها هى تلك العناصر المستهدفة من العنف ، وهى فى ذهن من يرتكب العنف أسباب البيئة التى يرفضها .

وهذا التناول ينبع أساساً من اقتناعات علمية راسخة ، بأن العنف ظاهرة اجتماعية وجزء من إفرازات التفاعل الاجتماعى ، المعبر عن ما يعتمر اللحظة الراهنة . ونبادر ، قبل التعمق فى القضية ، بأن هذه النظرة لاتعنى إطلاقاً تبريراً للعنف . فالفعل العنيف ، هو اعتداء على آخرين ، ويقع تحت طائلة القانون . لذلك فإن المواجهة القانونية لكل من يخرج على القانون أمر لازم وضرورى . ولكن النظرة العلمية ، لها دور آخر . فمواجهة ظاهرة العنف ، لها شق أمنى وقانونى ، تجاه أحداث العنف نفسها ومرتكبيها ، أما ظاهرة العنف بكل أبعادها ، فتلك قضية اجتماعية وسياسية .

لذلك فالتناول العلمى للظاهرة ، يهدف أساساً للوقاية . فتفجر العنف ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو عرض لمرض ، أى أنـه علامة على وجود أزمـات حادة من شأنها أن تـدفع البعض لاتخاذ أساليب فى مواجهة الحياة ، غير شائعة ولا عادية ، بل متطرفة . والفهم السليم للظاهرة ، يدفعنا للبحث عن المناخ المفرز للعنف ، باعتبار أن تغيير هـذا المناخ ، هـو السبيـل الـوحيد لإيقـاف ظـاهـرة العنف والحد مـن انتشارها .

أما الجانب الأمنى والقانونى ، فهو ليـس مواجهة لظاهرة العنف ، بل هو فقط مـواجهة لمرتكب العمـل العنيف . فالـوقائع تـؤكد أن ظاهـرة العنف لا تتعلق بمجموعة من الأفراد ، بل هى ظـاهرة جيلية ، تزداد حدتها بدفع دماء جديدة لها من الأجيال الشابة . معنى هذا ، أن استمرار المناخ المفرز للعنف ، هو القضيـة الرئيسيـة التى يجب أن نتعـامل معهـا ، لأن استمرار المنـاخ يعنى مزيداً من جماعات العنف ، وكأن استمرارهـا مرتبط مباشرة بالمواليد ، ودخول أجيال جديدة فى مرحلة الشباب ، مرحلة التساؤل عن معنى الحياة .

إذا قارنا إذن ، بين أسطـورة الإرهاب ، وظاهرة العنف ، سنكتشـف فروقا جوهرية . فالأسطورة تدور حول جماعة شر ، وقتلة مأجورين ، وقلة منحرفة ، فيصبح الحل الأمنـى كافيا للقضاء على هـذه الأسطورة . أما ظاهـرة العنف ، فتدفع كـل قوى المجتمع لمواجهة هـذه الظاهرة . ولكن الأسطـورة تقدم الحل السهـل ، والانتصـار الـوهمى ، أمـا « الظاهـرة » فتـدفـع الجميـع إلى تقييـم مواقفهم ، وتلك هى المشكلة .

لأن معـالجة ظـاهرة العنـف ، لـن تحدث إلا مـن خلال اكتشـاف منـاخ العنف ، ثم تغييره ، لـذلك فكثير من القوى تبتعـد عن هذه المعالجة ، خـوفاً من أن تطـولها رياح التغيير ، عنـدما تكتشف أنها تشـارك بقسط مـا فى خلق ظاهـرة العنف . فمعـالجة ظاهـرة العنف ، لـن تتحقق إلا مـن خلال النقـد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذاتى ، الذى يدفع المجتمع ممثلاً فى قادته ونخبه ، لتغيير ما بنفسه ، وهو ما يدفع الكثيرين للهرب من مفهوم « الظاهرة» إلى « الأسطورة » .

وإذا كانت « الأسطورة » هى هروب من الظاهرة ، فإن الأسطورة هى غطاء لحرب أخرى لا علاقة لها بالعنف وأفعاله . فتحت مظلة الحرب ضد الإرهاب، استباح الكثيرون لأنفسهم ، خاصة بعض وسائل الإعلام وبعض رموز الثقافة ، أن يشنوا حربا لا هوادة فيها تجاه كل ما يرتبط بالحركة الإسلامية ، وأيضا ما يرتبط بالخصوصية الحضارية .

فالهجوم على « الإرهاب » ، تبعه هجوم على ما سمى بخلط الأوراق بين الدين والدنيا وتحت مظلة محاربة الكهنوت السياسى ، والإسلام منه براء ، افترض ضمنا أن كل ما يربط الدين بالدنيا هو محاولة البعض للسيطرة على الدنيا من خلال سلطة دينية يحوزها البعض بدلاً من الكل . وحتى لا نفترض أن الأسطورة هى الخرافة بعينها ، نفرض أن ممارسات البعض قد أعطت انطباعاً بذلك ، ولكن الظاهرة الإسلامية فى مجملها لا تعرف الكهنوت السياسى والسلطة الدينية . والأهم من ذلك ، أن العلاقة بين الدين والدنيا ، هى أصل من أصولنا ، لا الأصول الدينية فقط ، بل الأصول الحضارية أيضا .

فالنموذج العربى الإسلامى ، نموذج الوسط ، قائم على ارتباط الدين بالدنيا ، ذلك الارتباط المعتمد على أن كليهما يعبر عن غايات سامية نهائية واحدة ، وأن كليهما يستند إلى مرجعية قيمية واحدة . لذلك فالتناقض بينهما غير وارد ، كذلك فإن اختلاف مسار الدين عن الدنيا غير وارد أيضاً ، لأن الدين (بمعنى العقائد والعبادات . . وغيرها) والدنيا (بمعنى السلوك اليومى والاجتماعى والسياسى . . الخ) كليهما يتبعان نفس المنظومة القيمية ، أى أنهما يسيران طبقاً لنفس المعايير والقواعد لهذا فإن الإفساد فى الدين ، يفسد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدنيا ، وإفساد الدنيا إفساد فى الدين ، وصلاح الحال للدين والدنيا معاً .

فإذا تصور البعض ، أن أسطورة الإرهاب يمكن أن تكون الخرافة التى نحولها لحقيقة ، فنتصور أن القضاء على الإرهاب ، لايتم إلا بفصل الدين عن الدنيا ، فهذا التصور ليس فقط خطأ ، بل أيضا تجاوز للواقع تماماً ، وإغراق فى بحر الأسطورة الخرافية . ففصل الدين عن الدنيا ، يعنى أن لكل منهما أهدافه وقيمه ومساره المستقل ، وعندما يتحقق ذلك ، فى مجتمع عربى إسلامى ، فسوف يؤدى إلى إفساد الحياتين الدينية والدنيوية ، كما سيؤدى إلى خلق تعارض واختلاف بين نظام الدين والدنيا . وتفكيك نظام الحياة ، إلى نظام دينى وآخر دنيوى ، لا علاقة بينهما ، يؤدى فى مناخنا إلى صراع وفتنة ، نعتقد أنها تلك الفتنة التى زرعها الغرب فى ربوع أوطاننا ، فكانت العنصر الفاعل فى صناعة مناخ العنف .

ومعنى ذلك ، أن عزل الدين عن مجال الدنيا ، على الأرجح ، هو أحد أسباب ظاهرة العنف ، ولكن أسطورة الإرهاب ، تعمل على تحقيق المزيد من عزل الدين عن الدنيا ، وكأن فى ذلك سيطرة على الإرهاب ، وهو فى الحقيقة إشعال مستمر لنيران العنف ، وتأكيد على استمرار المناخ الذى أفرز ظاهرة العنف .

والأسطورة لا تتوقف عند هذا الحد ، بل تتجاوزه ، إلى معان أخرى . ففى الخطاب الموجه ضد الإرهاب ، اتهمت كل فصائل الإسلام السياسى ، بأنها تمارس السياسة تحت عباءة الدين . واتهم الإخوان المسلمون على سبيل المثال بأنهم يستغلون الدين فى الانتخابات البرلمانية . والحقيقة أن هذا الاتهام ، ينتج عن فكرة الفصل بين الدين والدنيا ، ويضيف لها ضمنيا معنى آخر ، وهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقابلة بين الدين بنقائه ، والسياسة بنفعيتها . ولذلك اتهم كل نشطاء الحركة الإسلامية ، بأنهم طلاب سلطة ، ولذلك فالدين منهم براء ، وكأن طالب السلطة بعيد عن الدين . وبمعنى آخر ، يصبح طالب السلطة المعارض متهما بالنفعية فى حين أن حائز السلطة غير متهم .

والأمر فى صلبه ليس خلطاً للأوراق من قبل الحركات الإسلامية ، بل تجاهل كامل لطبيعة الحضارة الإسلامية ، ومضمونها ، وكذلك تجاهل لجملة الرموز التراثية ، ولغتها الخاصة . فالعلاقة بين الدين والسياسة علاقة قائمة عبر كل تاريخنا ، منذ الدولة الفرعونية . والسياسة تمارس عندما تثبت أنها لاتعارض الدين بل تحققه . وتصبح المرجعية الدينية ، هى معيار الحكم على الفعل السياسى . لذلك ، فإن الدين عندما ينظم ويوجه السياسى ، يحقق الدور المطلوب منه ، ولكن عندما يستخدم الدين لتبرير سياسات تتعارض مع قيمنا ، وقيم الدين نفسه ، هنا تظهر الشبهات الحقيقية . فإذا كانت الحركة الإسلامية ، تحاول إعادة تنظيم الحياة ، بفعل سياسى ، يعيد انتماء نظامنا إلى مرجعية القيم الدينية ، فهذا ليس استغلالاً للدين ، بل إفعالاً لوظيفة الدين ، باعتباره منظم الحياة على معيار القيم السامية .

على الجانب الآخر ، فإن توظيف الدين من قبل الحكومة ، بوصفه أداة لتبرير سياسات الحكومة ، وإكسابها إطاراً شرعياً ، هو ما يعد بحق استغلالاً للدين ، لا فى السياسة والسلطة فقط ، بل الأهم أنه استغلال للدين لفرض قيم معادية لقيم الدين والحضارة معاً .

أما السعى للسلطة ، فهو ليس اتهاماً ، إلا أذا حددنا المعيار . فكل من يحمل رسالة ، أو مشروعا ، أو فكرة ويحاول أن يحققها من خلال قيامه بدور سياسى ، لا يعد متهماً ، والأهم أن كل من يحمل هموم وأحلام الأمة معه ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلتزم بها وهـو فى مقعد الحكم ، هـو رمز مـن رموز الوطنيـة . والمحك ، فى الالتزام أو التفريـط ، تجاه الأمة ، كذلك فيما إذا كانت السلطـة وسيلة لخدمة المجتمع أو وسيلة للمصـالح الشخصية الضيقة ؛ رهن بحكـم الأمة نفسها ، ذلك الحكم الـذى يسطر فى صفحات التاريخ ، ليسجل الحقيقـة ، رغم كل الأساطير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإرهاب والحضارة الإسلامية

فرضت ظاهرة العنف الإسلامى ، على مائدة البحث ، فى الداخل والخارج. وأصبح الجدل يطول مختلف جوانب القضية ، الحقيقى منها والوهمى. والعنف تحت المظلة الإسلامية يحتاج لوقفة موضوعية . فالإسلام كدين ، وكحضارة ، لايدعو للعنف . ولكن خروج موجات العنف تحت شعارات إسلامية ، له دلالته الخاصة فى فهم الظاهرة . فالعنف مولد من خلال الإحساس بالانكسار ، وضياع الهوية ، والابتعاد عن التراث ، وضياع القيم الأصيلة . هذه الأزمة التى تعصر الذات العربية والإسلامية ، دفعت بعض الشباب لموجة من العنف ، تحت تصور أن العنف وسيلة لإعادة الأمة إلى تراثها وقيمها ومبادئها . ولذلك خرج العنف رافعا شعارات إسلامية ، دينية أكثر منها حضارية . فحركات العنف ، خرجت لتعبر عن موقف رافض لتنحى « المقدس » من حياتنا ، فأعلنت أن خروجها على الأوضاع ، حماية لهذا « المقدس » ، الذى تتصور أنه يتعرض لحرب شرسة هدفها النيل من مقدسات الأمة . ومن خلال هذا التصور ، تصور البعض أن العنف ، وبالتالى الانقلاب المسلح ، هو الوسيلة الوحيدة لإعادة « المقدس » إلى مكانته ، فخرج العنف رافعاً شعار الجهاد فى سبيل العقيدة ، ولهذا كانت ظاهرة العنف إسلامية فى شعاراتها .

ولكن فى مواجهة العنف ، حدث خلط للأوراق ، فى كثير من الأحيان هو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلط مقصود . فتم تحويل « الإسلامى » إلى عنف ، و « العنف » إلى إسلامى . ومن خلال تفكيك مكونات الظاهرة ، يتم سحب العديد من المفاهيم لتوضع فى دائرة الاتهام ، ويصبح التخلص من العنف ، هو تخلص من ما هو « إسلامى » .

والواقع أن الإعلام الغربى ، هو صاحب المبادرة فى ذلك . فقد صور الإعلام الغربى ، الإسلام والمسلمين ، والحضارة الإسلامية ، باعتبارها عناصر مكونة للعنف فتم الربط بين الإسلام والإرهاب ، لتتكون أسطورة الإرهابى المسلم صاحب اللحية والقنبلة والسلاح . حتى يتحول هذا الإرهابى إلى رمز يتم تجسيده بوصفه خطراً على الغرب ، والحضارة الغربية ، ومن ثم الإنسانية جمعاء . وهكذا تحشد القوى فى مواجهة هذا الرمز ، وتلك الأسطورة . لتدور المعركة الحقيقية ، لا بين سلاح وسلاح ، ولكن بين وسائل الإعلام ، وعقول الشعوب . فزرع هذا النموذج الأسطورى ، فى حد ذاته ضربة حقيقية لكيان الأمتين العربية والإسلامية ، لأنه حشد للشعوب فى مواجهة أمتنا ، مما يجعل الشعوب والدول ، مدفوعة نحو سحق أمتنا وحضارتنا .

والحقيقة أن ما يحدث هو حرب صليبية جديدة ، ولكن ليس تحت شعارات الصليب ، بل تحت شعارات العلمانية . فوسائل الإعلام الغربى ، ومن خلال تشويهها لكل ما هو إسلامى وعربى ، تضرب بذلك النموذج الحضارى الوسطى ، بوصفه نموذجا مغايرا للحضارة الغربية . لتعيد بذلك تصورات الخوف تجاه المنطقتين العربية والإسلامية ، وهزائم الصليبيين فى الضمير الغربى ، وتشعل مخاوفهم التاريخية من الإمبراطورية العثمانية . وبذلك يتم تهيئة المناخ بين الشعوب الغربية ، لأى مواجهة محتملة مع العالمين العربى والإسلامى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتلك الحرب العلمانية الباردة ، على غرار الحرب الباردة بين الرأسمالية والشيوعية ، تمهد جيوشها المدنية قبل العسكرية ، للسيطرة على هذا « الشرق» الإرهابى . واستغلال أحداث العنف ، بوصفها سبباً لطرح هذه الصورة الإعلامية المضللة ، ليس إلا خبثاً إعلامياً . والحقيقة أنه بوجود أو عدم وجود ظاهرة العنف الإسلامى ، فإن الحرب العلمانية الإعلامية ، كانت ستأخذ طريقها تحت أى مبررات أخرى . ولا ننسى أن الإعلام الغربى ، كان ومازال وسيلة فعالة فى تصوير حضارتنا ، بالتخلف والبدائية وغيرهما من النعوت .

واتهام الغرب بأنه يحاربنا عن قصد ، ليس بدون مبرر ، بل إن الأجندة الغربية ، المفروضة على العالم ، بقوة صندوق النقد أولاً ، ثم بقوة مبدأ حق التدخل فى الشئون الداخلية ثانياً ، تؤكد أن سبق الإصرار والترصد ، متكامل الأركان فى الحرب العلمانية الغربية . فالتوجه الغربى ، يؤكد على أهمية توحيد العالم حضارياً وقيمياً وسلوكياً ، وهو ما يعنى أن وجود أى منظومة حضارية مخالفة ومغايرة ، يعد إفشالاً لفكرة الهيمنة الحضارية الغربية .

والأمر لايقتصر على أمة العرب والمسلمين ، فالدول الغربية تحاول فرض نموذج حياتها على الحضارات الآسيوية ، خاصة اليابان والنمور الآسيوية . ونلاحظ أيضاً أن تلك الدول تقاوم ، وتحاول الحفاظ على خصوصيتها الحضارية ، تلك الخصوصية التى صنعت من خلالها مجدها الاقتصادى . لكن الفرق بينهم وبيننا كبير ، وهو ليس فرقا بين الحضارات ، فلهم حضارتهم ، ولنا حضارتنا ، والفرق الحقيقى فى موقف الغرب منا ومنهم . فالدول الغربية تتساهل معهم ، باعتبارهم « الشرق الأقصى » ، الذى لن يؤثر عليهم ، حتى وإن تميز. لهذا ، سنجد المساعدات الغربية للتجارب الآسيوية ، والتعامل المرن نسبياً . وإن كانت الدول الغربية ، فى النهاية تسمح بقدر من حرية الحركة ، مع تأكيدها ضمناً أن أى وضع نهائى لايجب أن يكون إلا التحاقا بالغرب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما نحن ، فى الشرق الأوسط كما يطلقون علينا ، أو فى قلب العالم ووسطه كما نرى أنفسنا ، فنمثل بالنسبة للغرب منطقة لايقبل تجاهها إلا النفوذ المباشر السافر . ومن خلال الكيان الصهيونى وبسببه فى نفس الوقت ، فإن موقف الغرب يزداد تمسكاً بأهمية الهيمنة الشاملة .

لهذا نرى أن أسطورة « الإرهاب والإسلام » التى يروج لها الإعلام الغربى، هى جزء من حرب شاملة موجهة تجاه الحضارة الإسلامية ، الهدف منها إبادة هذه الحضارة ، وتحويل شعوبها إلى نموذج حياتى آخر . وهو ما يجسد تفكيرا استعماريا ماديا ، يتصور الشعوب بأنها مادة يمكن معالجتها بالهندسة الوراثية ، لتخليق أنماط حضارية حسب الطلب .

وهذا عن الإعلام الغربى ، فماذا عن إعلامنا المحلى والإقليمى ؟ الغريب أن الإعلام العربى يأخذ من المواقف ما يماثل الإعلام الغربى فى كثير من الأوجه . ويبقى الفرق الظاهرى ، والضمنى ، بين الإعلام الغربى والإعلام العربى ، فإن الأول يهدف لسحق الحضارة الإسلامية ، أما الثانى فيحارب الإرهاب فقط ، فهل هذا صحيح ؟!

إن وسائل الإعلام ، تؤكد موقفها المعادى للإرهاب ، تلك الأسطورة الإعلامية التى لا نعرف على وجه التحديد حدودها . فكلما زادت حدة المعركة ، اتسعت الأسطورة لتشمل قوى جديدة ، وأفكارا وبدائل أخرى . وتوسع مفهوم الإرهاب لحد لا نعرف على وجه الدقة حدوده ، مما يجعلنا نشك فيما يحدث .

ثم إن وسائل الإعلام فى حربها على الإرهاب ، أطلقت من خلال بعض رموزها وكتابها مصطلح الإرهاب الفكرى ، ثم وصفت بعض القوى والرموز، بأنهم أكثر خطراً من الإرهاب نفسه . ثم لقنتنا فى النهاية ، درساً مستقبلياً ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى أهمية الالتصاق بالعلمانية وحقوق الإنسان والديمقراطية ، والبعد عن السلطة الدينية والتخلف والظلامية . وعند هذا الحد ، لايمكننا أن نوقف سيل الشكوك والهواجس .

فأسطورة الإرهاب ، طالت كل الحركات الإسلامية ، حتى الحركات السلمية ، ثم طالت الحركات الإسلامية غير السياسية ، والتى تعمل فى مجال الدعوة ، باعتبارها مفرخة للإرهاب . ثم طالت الأسطورة ، العمل الاجتماعى الإسلامى ، باعتباره مشجعا ومحفزا على الانضمام للجماعات « الإرهابية » . وأصبحت الأسطورة من الاتساع بحيث تشمل الكتاب والمفكرين والوعاظ من رموز الفكر الإسلامى . وتحول الجميع إلى خانة واحدة ، يظللها الإرهاب والتطرف . وعندما نبحث عن الاعتدال ، نكتشف فى الواقع المأساة .

فالاعتدال يبدأ من العلمانية ، وتظهر خطوطه عند أعتاب السادة الغربيين ، ويحصل على صك شرعيته من التحاقه بقيم الغرب ، واعتماده من وكلاء الغرب الثقافيين المسيطرين على قطاع عريض من الإعلام العربى .

فإذا كانت وسائل الإعلام الغربى ، تشن حملة حربية علمانية على الحضارة الإسلامية ، فماذا تفعل وسائل الإعلام العربى ، أو بعضها على الأقل ؟! قد نسارع باتهام أصحاب الحملة الإعلامية العلمانية ، بأنهم شركاء الغرب فى الحرب الباردة ضد الحضارة الإسلامية ، أو نرفع من درجة الاتهام ، ونعتبرها حرباً ضد الإسلام كدين ، ولكن إذا نحينا كل الاتهامات جانبا ، وتركنا سوء القصد للإعلام الغربى ، وافترضنا حسن النية فى الإعلام العربى العلمانى ، فإننا لا يسعنا إلا أن نؤكد أنه أيا كانت النيات ، فما يحدث الآن ، يمزق الحضارة الإسلامية ، باعتبارها وعياً جمعيا تاريخياً ، ويلحق الأذى بها ، ويشوهها فى عيون أمتها . إنها بالفعل مذبحة علمانية ، لأمة العرب والمسلمين ، بكل تاريخهم وتراثهم وقيمهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن مشكلة الإعلام العلماني العربي ، أنه يضع القيم الغربية العلمانية ، في مواجهة القيم العربية الإسلامية ، ويحمل الأخيرة كل تبعات العنف وأضراره . وأتصور لو أن الإعلام الغربي سمح لنفسه بشيء من هذا القبيل ، لكان الآن يهاجم جملة القيم الغربية ، باعتبارها المسئول الأول عن النازية والفاشية والنزعات العنصرية . هي إذن عملية « جلد الذات » وتمزيقها . وما يفعله الإعلام الآن ، ليس طريقاً للتقدم ، بل هو طريق لتحطيم كل القوى المعنوية للأمة . ولا أعتقد أن وجود بعض الجماعات التي تستخدم العنف ، مبرر كاف للقضاء على أمة ، وإبادة أبنائها ، وتحت مظلة كراهية تشنها وسائل الإعلام الغربي .

إن الحرب العلمانية الغربية ، تجاه الحضارة الإسلامية ، وجدت لنفسها وكلاء وحلفاء بيننا . فأصبحنا نتلقى الطعنة الغادرة بيد عربية ، وبكلمات عربية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارة الإسلامية فى مواجهة العنف

نعتقد أنه تحت مظلة الحرب ضد الإرهاب ، بوصفها حرباً وطنية مبررة ، هناك الكثير من المشروعات التى يتم تمريرها . فالدعوة للديمقراطية الغربية ، والليبرالية كمنهج حياة ، وكذلك الانضمام إلى النظام العالمى ، والشرق أوسطية ، والتسوية السلمية أو الاستسلامية ، كلها أمور تجرى على قدم وساق ، وتمرر تحت جنح الظلام ، دون أن تناقش أو تقيم . فالكل الآن محاصر بلعبة الإرهاب ، وأسطورة الخوف ، وخيال الدماء .

فحتى نستطيع مواجهة الإرهاب ، حسب الرأى السائد المفروض على الساحة ، علينا أن نتكتل جميعاً فى خندق واحد . ومن يرفض الدخول فى الخندق ، يحسب على معسكر الإرهاب ، ويتم اغتياله معنوياً على الأقل . وكأن الساحة منقسمة إلى معسكر الديمقراطية ، وهى الرشد والعقل والتقدم ، ومعسكر الإرهاب ، وهو التخلف والعنف والظلامية . ومن يخرج عن المعسكر الأول ، يصبح محسوباً على الثانى . فهل هذه صورة واقعية ؟

وعندما نحلل الصورة أكثر ، سنعرف أنها ليست بين الديمقراطية ، كأسطورة للخير ، والإرهاب ، كأسطورة للشر ، بل هى مقابلة يتم تمريرها ضمنياً فى جنح الظلام ، بين الحضارة الغربية ، والحضارة الإسلامية ، وتصبح الأولى أسطورة الخير وإلهه ، والثانية أسطورةالشر وإلهه . وبهذا يصبح علينا الاختيار بين الالتحاق بالحضارة الغربية ، المفضى للتبعية ، باعتباره حلاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحيداً للمستقبل ، أو نختار الحضارة العربية الإسلامية ، مما يؤدى إلى سيل الاتهامات التى تبدأ بتشجيع الإرهاب ، ولاتنتهى إلا بتهمة الإرهاب نفسها . وفى الاختيار الأول ، نواجه الانتحار الحضارى ، وفى الثانى نواجه الموت فى سبيل حضارتنا .

تلك صورة مرفوضة ، أو يجب علينا أن نرفضها . وقد يجادل البعض فى وجود هذه الصورة أصلاً ، ولكن الوقائع المعيشة فى أمتنا العربية ، تؤكد أن الصورة حقيقية ، وإن لم تكن نتاج مؤامرة مقصودة ، فهى نتاج تفاعلات اللحظة الراهنة ، بكل ملابساتها الخارجية والداخلية .

فمن جانب الدول الغربية ، نلاحظ هجومها على الحركات الإسلامية ، واتهامها جميعاً بالإرهاب . وفى نفس الوقت ، فإن الدول الغربية تفرض علينا أجندة تبدأ بالسياسى وتصل حتى قيم الحياة نفسها ، فى صورة سافرة مكشوفة . والحكومات العربية ، تعلن الحرب على الإرهاب ، وتدعو إلى الالتحاق بالنظام الدولى السائد بكل مفرداته . والنخبة المثقفة العلمانية ، تهاجم الإرهاب ، وتطرح قيماً غربية .

إذن الحرب ضد العنف الإسلامى ، والمطروح للتأييد مشاريع غربية . وأكثر من هذا فإن الحرب على العنف الإسلامى ، تجاوز الحرب على العنف ، ليصبح حرباً على « الإسلامى » . وفى ضوء طرح بدائل غربية متزامنة مع هذه الحرب ، فإن مساحة الاختيار تتقلص ، حتى لا يبقى فيها إلا الالتحاق بالغرب ، أو التعرض لتهمة الإرهاب بكل مخاطرها الأمنية .

والواقع أن ما يحدث ليس فقط استغلالاً للحرب ضد الإرهاب ، بل هو أيضاً مأزق سقطت فيه معظم القوى الحاكمة . فالعنف الإسلامى ، يحمل دعوة للعودة للدين وللحضارة والتاريخ ، ويحمل قيماً أصيلة ، حتى وإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تطرف فى ممارستها . ولـذلك فإن محاولات مواجهة هذا العنـف ، والتى بدأت أكثر رشادة ، تحولت إلى موجة عارمـة من الهجوم ضد مجمل الطرح الحضارى العربى الإسلامى .

والمشكلة أن مـواجهة العنف ، تعتمـد أساسـاً على فكرة استبعاد حـركات العنف و إبـادتها تماماً والتخلص منها . وهـذا الموقف يؤدى إلى مهـاجمة مجمل المنظومة التى خرجت منها هذه الحركـات . فحركات العنف تخرج من المنظومة العربية الإسلامية ، لأنها مثل أى منظـومة ، لها تجليات وأطروحات متعددة ، حسب الظـروف المحيطة . ومن يتصور أنـه قادر على إبادة حركـات العنف ، دون إبادة المنظـومة نفسها ، واهـم . لإن مواجهـة هذه الحركات ، لـن تكون بـالإبادة ، بـل بتغيير المسار ، نعنـى بـذلك تغيير مسـار الفيض الخارج مـن حضارة الأمة ، دفاعاً عن مقدساتها . وحتى يغير مسار هذا الفيض ، يجب أن نعلم أولاً أنه فيـض طبيعى ، يحدث فى كل الحضارات . فأى حضـارة تعانى من التـأخر والتخلف ، ويتـم تحييدها ، وتـواجه مخاطر تهدد وجـودها ، أى حضارة تعانى مـن هذه الظروف ، يخرج من داخلها فيض دفـاعى غاضب ، يحاول أن يحمـى مقـدسـات الحضـارة . فالحضـارة ، مثـل البشريـة ، تحمـل بـداخلها الـدافع للبقـاء والاستمرار . وعنـدمـا تكون الحضـارة ذات تاريـخ طويـل ، وتجارب ممتدة ، وملايين مـن الأبناء ، عنـدئذ تكون حضارة قـوية ، تملـك الدافـع للبقاء ، وتملـك أيضاً القـدرة على البقـاء رغم كـل التحديـات والتهديدات .

فإذا كان العنـف فى أحد جوانبه ، تعبيراً عـن دفاع الأمة عن مقـدساتها ، وإن كان بأسلـوب سلبى ، فإن تجفيف منابعه ، كفكـرة سيطرت على النخب الحاكمة ، هو فى الواقع محاولة لتجفيف منـابع الحضارة نفسها . وهو ما يؤدى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى تزايد الخطر المحدق بالحضارة والأمة ، أى أنه فى حد ذاته ، دافع إضافى لطوفان الفيض العنيف . فكلما تعرضت المقدسات لتهديد أشد ، كلما انفجر العنف بلا حدود .

ويبقى العنف وآلامه ! كما تبقى التهديدات المحيطة بالأمة ومخاوفها !

والحقيقة أن فهم العنف وأسبابه ، تدفعنا إلى معرفة الطريق السليم لتجاوز هذه الظاهرة . فالعنف فى أحد جوانبه دفاع عن مقدسات الحضارة ، ولهذا فإن الحضارة الإسلامية ، كمشروع مستقبلى ، هى الوسيلة الوحيدة لمواجهة العنف . وبالتالى يصبح تطوير وتجديد وترشيد ، الحركات الإسلامية هو هدفنا . لأن كل محاولة لإصلاح المسار ، هى محاولة لتنظيم فيض العنف ، الخارج من الدافع للبقاء الحضارى . فالفيض فى حد ذاته ، حقيقة نعيشها ، وفى نفس الوقت نحتاجها . لأن الدافع للبقاء الحضارى ، فى التحليل الأخير، هو الدافع المحرك للأمة ، للبقاء وللتقدم معاً . وبسبب ما تمر به الأمة ، تحول الفيض إلى طوفان ، فأصبح عنيفاً . ولذلك علينا أن ننظم هذا الفيض ، ونخفض من حدته .

وتنظيم الفيض التراثى ، لايتحقق إلا بإعادة إحياء قيم الأمة ، وإعادة قدسيتها مرة أخرى . ولا نعنى بذلك فرض رؤية محددة على الجميع ، فقيم الأمة هى الإطار العام الشامل لثوابتها ، وبالتالى فهى محدد لهوية الأمة ، وفى داخل هذا الإطار يمكن أن تتولد العديد من الرؤى والأفكار .

وحتى نخفض من حدة الفيض التراثى ، علينا أن نسرع بشق الطرق المؤدية لإحياء الحضارة مرة أخرى ، ونفتح الأبواب لنهضة التراث ، فيكون الانتماء لقيم التراث سبباً لإتاحة الفرص ، أمام الأفراد والجماعات ، لا أن يكون سبباً للحرمان من الشرعية . لأن منع الشرعية عن الأطروحات والحركات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النابعةمن الحضـارة العربية الإسلامية ، يوحى بل ويـؤكد ، أن النظام السائد يعـادى هذه الأمـة ومقدسـاتها ، مما يضيـف شحنـة جديـدة للفيض التراثـى الـدفـاعى . وهكـذا تتـولـد دائرة العنـف والعنـف المضاد . فـالحملـة ضـد الإرهاب ، تحوى العديد من العناصر المخلقـة لبيئة ومناخ العنف ، الذى كان سبباً فى خروج الظاهرة منذ البداية .

لذلك فالحملة ضد الإرهاب ، تجنح فى أحيان كثيرة ، خاصة فى مضمونها الثقافى والقيمى ، إلى أن تكون عنفاً موجهـاً لتراث هذه الأمة ، وهو ما يجعلها محركاً لعنف مضـاد ينبع من الفيض الدفـاعى الفطرى للأمـة . وهكذا تتحول الحملة التـى تدعى مـواجهة الإرهاب ، إلى سبب مبـاشر فى تفاقم الظـاهرة ، وتزايد حدة العنف والعنف المضاد . وبهذا نسكب على النار جمراً من نار .

والغريب أن الحكومة فى بداية مواجهتها لحركات العنف الإسلامى ، كانت تحاول المزايدة على هذه الحركـات ، حتى تحولت المواجهة إلى منـافسة وتبارز فى التدين . والحقيقة أن هذا لم يكن عملاً إيجابياً ، لأن المزايدة فى التدين ، تعنى المزيد مـن الطرح الشكلى الظاهـرى للدين ، وبـالتالى تغذى الفهـم المتطرف الشكلانى للدين . ومن خلال المزايدة الدينيـة ، طرحت الحكومة ما تريد من سياسات تحت شعـارات دينية ، فجاءت السياسات منافيـة لمبادىء الحضارة الإسلامية ، أو على الأقل غريبة عنها . ولذلك سقطت لعبة المزايدة .

وفى مرحلة ثانية ، اتجهت الحكومة إلى وقف عملية المزايدة ، وبدأت فى بث قيم « التسامح » عن طريق فتح البـاب تدريجياً للقيم الليبرالية الغربية . وبعد أن كـانت السيـاسات تمرر مـن خلال شكـل تراثـى متحفى ، أصبـح الاتجاه الراهن يهدف إلى تمرير السيـاسات تحت شكل غربى سافـر ، كنوع من إكمال الحملة على الإرهاب ، وتجفيف منابعه . وكـأن النخبة الحاكمة ، اقتنعت بأن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المزيد من التدين وملامح الخصوصية ، ولو بأسلوب شكلى ، يعطى الشرعية «للعنف» ، ويسحبها من الحكومة .

وبالطبع فإن المرجعية الحضارية للأمة ، هى حائط الصد أمام أى دعوات للشرعية . ولكن الخروج على هذه المرجعية تماماً ، يعد تحولا خطيرا . والغريب أن بعض رموز الثقافة وكتابها جنحوا إلى هذه الرؤية معتبرين المرجعية الحضارية بوصفها منابع الإرهاب التى يجب أن تجف ، ولكن المرجعية الحضارية ، ليست منبع العنف ، بل إن تحجيمها هو سبب العنف ، وفى نفس الوقت فهذه المرجعية هى الحكم الذى يفرز الأصيل من الوافد . ولأن كتاب العلمانية الغربية ، هم ضمن الوافد ، ولأن إحياء المرجعية الحضارية ، سيفرزهم باعتبارهم وكلاء للوافد الدخيل ، لذلك أصبحت حملة الإرهاب ، فرصة لتدمير كل قيمة تحت ساتر وابل الرصاص . ونسى البعض ، أو الكثيرون ، أن إحياء المرجعية الحضارية ، سيوقف فيض العنف ، ويولد فيض النهضة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تجفيف منابع التاريخ

إن موقف أى أمة من تاريخها ، يمثل علامة أساسية ، تحدد توقعات المستقبل . فالمستقبل يولد فى الماضى ، وينمو فى الحاضر ، ويتحقق فى المستقبل . لأن التغييرات التى تمر بأى مجتمع ، ليست وليدة اللحظة ، بل هى عملية مستمرة وتدريجية . فالتغيير ، ليس على وجه الدقة ، هو تغير الحاكم ، أو تغير قانون ، أو موقف سياسى . لأن التغير الاجتماعى الحضارى ، عملية أكثر تعقيداً ، وتشمل كل التغيرات الصغرى . لذلك فالتغييرات السياسية والاقتصادية ، هى علامات لها دلالتها فى فهم عملية التغير الشامل والتدريجى التى تمر بها المجتمعات . وفى الكثير من الأحيان ، نركز اهتمامنا على التغير السياسى الحادث ، باعتبار أن الأحداث السياسية ، تمثل ما يلفت الانتباه . فالإعلام مثلاً ، يركز على السلوك والحدث السياسى ، أكثر من غيرهما .

لهذا ، فإن ما نلاحظه ، يمثل الأحداث الأعلى صوتاً ، ولكن التغييرات الاجتماعية تبقى بعيدة عن مجال النظر والرؤية ، لأنها جزئية ومرحلية ، وكذلك لأنها أشياء تحدث داخل جماعات بأكملها ، مما يجعل متابعتها أمرا شديد الصعوبة . ولكن أى باحث مهتم بالمستقبل ، عليه أن يوجه نظره إلى مختلف العناصر المشكلة لحياتنا ، الضمنى منها قبل الظاهر ، والاجتماعى قبل السياسى .

فالتاريخ يحكى قصص الحكام ، ويتجاهل كثيراً قصص الشعوب . ولكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل قصة تاريخية تحمل فى الواقع قصة شعب ، قبل قصة حاكمه . لهذا فالسياسة هى الرموز التى نستخدمها فى التأريخ ، أما الاجتماع والحضارة ، فهما المضامين التى نستخلصها من التاريخ . وعندما ننظر للماضى ، سنجد أن المتاح من كتب تاريخية ، يحكى السياسى أولاً ، ومنه نستنتج الاجتماعى ونفهمه . ولكن عندما نهتم بالمستقبل ، علينا أن نقلب الصورة . فالمستقبل ليس وليد السياسى الحاضر ، ولكنه وليد الاجتماعى المتشكل فى الماضى والحاضر. وحتى نرتب صورة الرؤية المستقبلية ، علينا أن نفهم الوضع السياسى الراهن ، باعتباره إفرازاً لعملية اجتماعية مستمرة ، فإذا أردنا معرفة الوضع السياسى المستقبلى ، فعلينا أن نعود للعملية الاجتماعية التى أفرزت الوضع الراهن ، لنتابع سيرها ثم نحدد توقعاتنا عن إفرازاتها فى المستقبل .

وفيما يخص الوضع السياسى الراهن ، المتميز بإقامة دولة قوية حديثة واقتصاد قوى ، فإن هذا الوضع يمتد إلى بدايات القرن العشرين ، أو ما قبلها ، فتظهر جذوره فى فكرة الدولة الحديثة ، والمعاصرة . تلك الأفكار التى نادى بها بعض المفكرين المتأثرين بالحضارة الغربية ، الأمر الذى أدى إلى زرع بذور هذه الأفكار ، وتجمع نخب من حولها . وتشكل بذلك كيان اجتماعى ملتحق بالغرب ، الحضارة والفكر والقيم .

ومن هذا الكيان الاجتماعى ، تفجر التصور حول الدولة الحديثة . لذلك فإن قادة ثورة يوليو ، أزاحوا الاستعمار الذى بنى دولة حديثة تابعة له ، واستولوا على الدولة التى بناها ، وبدءوا فى تحقيق حلم الدولة الحديثة . ونفهم من ذلك أن الكيان الاجتماعى المتغرب ، لم يقم بإنشاء الدولة الحديثة بنفسه ، بل قام بذلك مجموعة من الجناح العسكرى للدولة ، تأثرت بالفكرة ، ورأت أنها أحق بقيادة الدولة ، وأنها القادرة على تنفيذ الفكرة . وتبع ذلك تنحى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكيان الاجتماعى الغربى ، فى فترة عبد الناصر على الأخص ، حيث اتهم هذا الكيان بأنه مخترق من الاستعمار . ومع تمادى الدولة فى طريق الحداثة ، كان من الطبيعى أن تتحالف مع مصدر الحداثة ، فجاءت مرحلة التبعية للغرب ، على يد السادات ، بوصفه صانع الحداثة ، وأيضا ممولها . وبالتالى دخل الكيان الاجتماعى المتغرب الحلبة مرة أخرى ، بوصفه الوكيل المحلى ، للمشروع الغربى . مما حصر الصراع حول فكرة الحداثة ، لا فى الاستقلال عن الغرب أو التبعية له ، لأن التبعية لصاحب الفكرة ضرورة ، بل حُصر الصراع فى المنافسة بين الدولة كصاحبة للسلطة ومشروع الحداثة معاً ، وبين الوكلاء الغربيين بوصفهم الأداة الحقيقة لنشر المشروع الغربى .

نستنتج من هذا أن موقف الدولة اليوم ، يعود فى جذوره التاريخية ، لموقف النخبة المثقفة عبر تاريخها الماضى ، والممتد لحوالى القرن من الزمان . بهذا المعنى ، فإن النخبة تطرح « التصور » ، ثم تحاول تمهيد المجتمع لتنفيذ هذا التصور ، حتى وإن لم تكن صاحبة السلطة أو صاحبة مبادرة التنفيذ . وهو ما يفسر لنا سر العلاقة الغريبة بين النخبة المثقفة المتغربة ، وحكام ثورة يوليو . فهذه العلاقة تتراوح بين الصدام العنيف ، وتبعية النخبة للسلطة لحد سافر . فمشروع الحداثة محصور تماماً ، بين النخبتين العسكرية والإدارية ، والنخبة المثقفة والشرائح العليا . ومن الواضح أن النخبة العسكرية ، بوصفها قائد النخب الإدارية والفنية للدولة كما تظن ، ترى أن حق الحكم يتركز فى يد الجهاز والقوة الفاعلة فيه ، مما يدفعها إلى مقاومة أى محاولة من النخب المتغربة للسيطرة على الدولة . ويعنى ذلك ضمناً أن الدولة بجناحيها العسكرى والمدنى ، ترى أنها القادرة على تحقيق الحداثة وحماية الوطن ، أما النخب الغربية ، فتظل متهمة بأن ولاءها للخارج . ولهذا تقبل بوصفها نخبة تعمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لدى جهاز الدولة ، وترفض عندما تصبح نخبة تعمل لمصلحتها ، وترى أنها صاحبة الحق فى قيادة الدولة .

تلك المفردات ، تؤكد لنا الأساس الثقافى للواقع السياسى الراهن . وهو ما يدفعنا لفهم ما حدث ويحدث على المستوى الثقافى . فالرموز الثقافية لما سمى بالتنوير والنهضة ، قدمت فكرها على أساس أن الحداثة ، هى الطريق للتقدم ، وهى وسيلة الدخول فى العصر . تلك الأفكار التى وتأسست على يد أحمد لطفى السيد ، أكدت ضمناً على مفهوم شديد الخطورة ، وهو الانقطاع التاريخى .

فالتصور الثقافى يرتكز فى أحد عناصره الهامة ، على تصور التاريخ . فالتاريخ فاعل فى الحاضر والمستقبل من خلال عمليتين هامتين . الأولى : أن كل الميراث التاريخى ينتقل من جيل لآخر ، فى عملية توارث حضارى ، تشكل الوعى الجمعى للأمة . والثانية : أن التاريخ بكل ما فيه فاعل اليوم ، من خلال تصوراتنا عنه ، وما يشاع ويروج بخصوصه . العملية الأولى إذن تلقائية لايتحكم فيها أحد ، والثانية عملية مقصودة وموجهة بقدر أو آخر ، فتصوراتنا عن التاريخ ، هى نتاج ما يكتب ويقال ، ليقدم التاريخ للأجيال ، جيلا بعد الآخر .

لهذا فإن وكلاء الغرب ، طرحوا مشروع الحداثة ، من خلال التركيز على مفهوم تاريخى ضمنى وهو الانقطاع . فالتاريخ الماضى ـ كما صور ـ ظلامى ومتدهور ، ولذلك علينا أن نخرج منه وننفصل عنه ، حتى ندخل فى الحداثة والمعاصرة . ومن خلال توسيع الفجوة بين الماضى والحاضر ، طرحت تصورات تجعل الحاضر ثورة ضد التاريخ ، فالتاريخ يحمل التخلف ، والحداثة ثورة على التخلف ، لذلك فالحاضر ثورة ضد الماضى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن فكرة الانقطاع ضمنية ، أكثر من كونها علنية . بمعنى أن الانقطاع يحتاج لفهمه ،لتبريرات ، تجعل قطع ما هو متصل أمراً ممكنا . والحقيقة أن التبرير جاء أولاً على يد مستشرقين ، ثم أكمل الدور وكلاؤهم المحليون . فتم إعادة قراءة التاريخ ، حتى يبدو وكأنه تاريخ أوربا إلا قليلا ، فهو عصور مظلمة إلا قليلا ، وإقطاع إلا قليلا . . وهكذا . وهذه الرؤية طرحت الحضارة العربية الإسلامية ، بوصفها الحضارة الغربية إلا قليلا ، حتى يتسنى من خلال ذلك القفز إلى النقطة الجوهرية ، وهى أهمية إكمال حلقات التاريخ حسب قانونه الغربى ، فإذا كان ماضينا هو ماضى الغرب إلا قليلا فعلينا أن نجعل مستقبلنا هو مستقبل الغرب ، حتى وإن كان إلا قليلا أيضاً . وبهذا طرح تصور الدولة الحديثة الذى وصل بنا إلى طرح المشروع الغربى متكاملاً، من ديمقراطية وليبرالية وسوق حر ، وسيادة نمط الدولة على المجتمع . وإذا كان ما تحقق هو نموذج تابع للغرب ، ولايستطيع أن ينافسه ، فهو أمر مقبول، أن نصل فى النهاية إلى حداثة إلا قليلا !!

قراءة التاريخ من قبل النخبة المتغربة حققت الانقطاع التاريخى من خلال إعادة تصور الماضى بصورة غير حقيقية ، ليصبح الحاضر امتداداً لماضٍ وهمى . فما يحدث الآن من نموذج الدولة الحديثة القوية المشوه ، هو امتداد لأطروحات مثقفى الغرب عبر حوالى قرن من الزمان ، وما يحدث مشوه لأنها دولة حديثة إلا كثيرا ، وقوية إلا كثيرا !! فلا هى امتداد ناجح للماضى ، ولا هى خروج مظفر عن التاريخ .

وبنفس المنطق يمكن أن نرى المستقبل . فالنخبة المثقفة المتغربة ، ونحن نقدم على مطلع القرن الحادى والعشرين ، تقدم نموذجاً جديداً للتاريخ ، يتجاوز عملية الانقطاع التاريخى ، ويرسى قواعد عملية تجفيف منابع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاريخ . وهى عملية تجرى على قدم وساق ، تحت دعوى تجفيف منابع الإرهاب ، ومنابع التطرف ، والحقيقة أنها تجفيف لمنابع التاريخ نفسه . فما الفرق بين تصور الانقطاع التاريخى ، وتصور تجفيف منابع التاريخ ؟!

إن المرحلة الأولى من تغريب مصر ، اعتمدت على طرح تصور عن التاريخ ، يجعل عملية استمراره ، هى بالفعل انقطاعا عنه ، ولكن التاريخ ينتقل لنا من خلال التصور ، ومن خلال التوارث الحضارى للوعى الجمعى . لهذا فإن النخبة المتغربة الآن ، اكتشفت أن كل التصورات التى طرحت عن التاريخ ، لم تؤثر على الوعى الجمعى التاريخى . فرغم قرن من التنوير كما يقولون ، مازلنا تراثيين وعروبيين وإسلاميين ، أى ظلاميين كما يظنون ! فرغم قرن من التنوير ، فالأمة مازالت تتعلق بتاريخها المتخلف ، كما يفترون !

إن الصمود الحضارى للأمة ، يدفع قوى التغريب فى العالمين العربى والإسلامى ، إلى الدخول فى مرحلة تجفيف منابع التاريخ ، أى محاولة إحداث انقطاع وتشويه فى الوعى الجمعى التراثى للأمة . وتلك مرحلة تبلغ من الخطورة شأنا يجعلنا ننادى الأمة أن تستيقظ وتدافع عن نفسها .

ولكن كيف يتم تجفيف منابع التاريخ ؟ من الواضح أن الأطروحات النخبوية المعاصرة ، تحاول أن تمزج مزجاً خبيثاً بين الإرهاب والتراث ، وبين التطرف والتراث . والمقصود هنا ، أن نحمل القيم المتوارثة مسئولية سفك الدماء ، وحالة العنف الراهنة . والهدف من ذلك ، هو تخويف الإنسان العادى من ذلك الشر العنيف الدموى القابع من أعماق تاريخه ووعيه الجمعى ، حتى يحدث الصراع بين الإنسان ووعيه بذاته ، ومن ذلك الصراع تختل عملية التوارث الحضارى وتشكيل الوعى الجمعى .

والغاية النهائية ، هى أن نولد نحن أبناء هذه الأمة تواريخ عن أنفسنا ،